

أدب

أسباب للكى بالنار

خيرى شلبى

قصص



أسباب للكى بالنار

(قصص)



المشرف العام

د. أحمد مجاهد

اللجنة العليا

أ. إبرهيم أصلان

د. أحمد زكريا الشلق

د. أحمد شوقى

أ. طلعت الشايب

أ. عبلة الروينى

أ. علاء خالد

أ. كمال رمزى

د. محمد بدوى

د. وحيد عبد المجيد

تصميم الغلاف

وليد طاهر

الإشراف الفنى

على أبو الخير

صبرى عبد الواحد

تنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

أسباب للكى بالنار

(قصص)

خيرى شلبى



أسباب للكى بالنار

شلبى، خيرى.
أسباب للكى بالنار: قصص/ خيرى شلبى.ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.
١٤٤ ص: ٢٠سم (مكتبة الأسرة)
تدمك ٧ ـ ٠١٠ ـ ٢٠٧ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١ ـ القصص العربية القصيرة.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠١٩ / ٢٠١١
I.S.B.N 978- 977- 207-010-7
ديوى ٨١٣٫٠١

توطئة

مشروع له تاريخ

مشروع «القراءة للجميع» أى ُحلم توفير مكتبة لكل أسرة، سمعنا به أول مرة من رائدنا الكبير الراحل توفيق الحكيم.

وكان قد عبر عن ذلك فى حوار أجراه معه الكاتب الصحفى منير عامر فى مجلة «صباح الخير» مطلع ستينيات القرن الماضى، أى قبل خمسين عامًا من الآن.

كان الحكيم إذًا هو صاحب الحلم، وليس بوسع أحد آخر، أن يدعى غير ذلك.

وهو، جريًا على عادته الخلاقة فى مباشرة الأحلام، تمنى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه جموعًا من الحمير النظيفة المطهمة، وهى تجر عربات الكارو الخشبية الصغيرة، تجوب الشوارع، وتتخذ مواقعها عند نواصى ميادين المحروسة، وباحات المدارس والجامعات، وهى محملة بالكتب الرائعة والميسورة، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من حاملات الخضر وحبات الفاكهة.

ثم رحل الحكيم مكتفيا بحلمه.

وفى ثمانينيات القرن الماضى عاود شاعرنا الكبير الراحل صلاح عبد الصبور التذكير بهذا الحلم القديم، وفى التسعينيات من نفس القرن، تولى الدكتور سمير سرحان تنفيذه تحت رعاية السيدة زوجة الرئيس السابق. هكذا حظى المشروع بدعم مالى كبير، ساهمت فيه، ضمن من ساهم، جهات حكومية عدة، وخلال عقدين كاملين صدرت عنه مجموعة هائلة من الكتب، بينها مؤلفات ثمينة يجب أن نشكر كل من قاموا باختيارها، إلا أنه، للحقيقة ليس

غير، حفل بكتب أخرى مراعاة لخاطر البعض، وترضية للآخر، ثم إن المشروع أنعش الكثير من متطلبات دور النشر، بل اصطنع بعضها أحيانًا.

وبعد ثورة ٢٥ يناير والتغيرات التى طرأت توقفت كل الجهات الداعمة لهذا المشروع الثقافى عن الوفاء بأى دعم كانت تحمست له عبر عقدين ماضيين، سواء كانت هذه الجهات من هنا، أو كانت من هناك.

ولم يكن أمام اللجنة إلا مضاعفة التدقيق فى كل عنوان تختار، وسيطر هاجس الإمكانات المحدودة التى أخبرتنا بها الهيئة فى كل آن.

والآن لم يبق إلا أن نقول بأن هذه اللجنة كانت وضعت لنفسها معيارًا موجزًا:

جودة الكتاب أولاً، ومدى تلبيته، أولاً أيضًا، لاحتياج قارئ شغوف بأن يعرف، ويستمتع، وأن ينمى إحساسه بالبشر، وبالعالم الذى يعيش فيه.

واللجنة لم تحد عن هذا المعيار أبدًا، لم تشغل نفسها لا بكاتب، ولا بدار نشر، ولا بأى نوع من أنواع الترضية أو الإنعاش، إن لم يكن بسبب التربية الحسنة، فهو بسبب من ضيق ذات اليد.

لقد انشغلنا طيلة الوقت بهذا القارئ الذى انشغل به قديمًا، مولانا الحكيم.

لا نزعم، طبعًا، أن اختياراتنا هى الأمثل، فاختيار كتاب تظنه جيدًا يعنى أنك تركت آخر هو الأفضل دائمًا، وهى مشكلة لن يكون لها من حل أبدًا. لماذا؟

لأنه ليس هناك أكثر من الكتب الرائعة، ميراث البشرية العظيم، والباقى.

رئيس اللجنة

إبراهيم أصلان

كلوا بامية

اللعبة من أساسها أن فريقا يجب أن يركب فوق فريق، فأى الفريقين يركب الأول؟ ذلك يقتضى لعبة أخرى.. ولكن كيف يصبح هناك فريقان؟. أولاد الحارة والحوارى المتاخمة كلهم فى الجرن ساعة زهزهة القمر.. لابد أن يتوفر ولدان من الأشقياء مثل «محمود القرن» و «جنوم»، تسفر عنهما معارك طويلة بين هذه الحوارى كلها منذ الطفولة المبكرة، إذا اجتمعنا فى الجرن حقت اللعبة.. أى لعبة لابد لها من فريقين.. يقف الولدان فى الساحة كل منهما شاهرا زنده متحديا.. يبدأ أحدهما بما يسمونه بالمطالقة:

- طالقنى..

- طالقتك..

- بزندى..

- فلقتك..

ـ اختر لك واحد..

ـ اخترت فلانا.

فعلى من يسمع اسمه من العيال أن ينسلت فى الحال وينضم إلى رحاب من اختاره. ثم تبدأ المطالقة من جديد بين الشقيين الكبيرين. بذلك يصبح ثمة فريقان لكل منهما ولد متين يقوده فى مواجهة الفريق الآخر.

ثم تبدأ اللعبة بلعبة اسمها «كلوا بامية». بأن يقف الفريقان فى صفين متقابلين ثم يرددون، معا وفى نفس واحد عبارة «كلوا بامية» بلهجة غنائية ممطوطة مصحوبة ببسط الأكف فى مواجهة بعضهما البعض وجعلها تتماوج مع صوت الترديد، بشرط أن تتوافق تموجات كل فريق. فإذا انقلبت الأكف فجأة على الوجه الآخر فإنها لابد أن تنقلب كلها دفعة واحدة. فإن شدت يد أو تأخرت فإن فريقها يكون مطية حلالا للفريق الآخر، يصطف الفريق المخطئ ويطأطئ عياله رءوسهم مع إحناء ظهورهم والاستناد بأكفهم على سيقانهم ليكونوا كالحمير سواء بسواء، فى فرح يجىء الفريق الفائز ويتسلق الظهور. كل راكب بمركوب غير أن الفريق الراكب قبل أن يمتطى الظهور يكون قد انزوى مع ولده، والذى يعطى لكل منهم اسما مستعارا غير اسمه الحقيقى، أى اسم يخطر على باله لحظتها، ثم يتركهم يملأون حجورهم بالتراب ويركبون، ليقوم هو بمهمته، حيث يكون ولد الفريق المهزوم قد تقرفص فى مواجهة الصف الذى صار مكونا من راكب ومركوب. فيجىء ولد الفريق الراكب فيرفع ذيل جلبابه ويلف

به رأس ولد الفريق المركوب، وفوق ذلك يضع كفيه على عينيه حتى لا يرى من خلال الجلباب، ولد الفريق الراكب دائما خبيث، يتلكأ حتى يكف الصياح وليستمتع فريقه بركوب أطول. أخيرا يصيح آمرا:

- لا ينزل ولا يتزلزل .. إلا سفير جهنم.

على الفور يكون حامل هذا الاسم قد طوح ذراعه فى الهواء وقذف الشقى المعصوب العينين بحفنة من التراب فى وجهه. على الشقى المعصوب العينين أن ينطق فى الحال بالاسم الحقيقى للشخص الذى قذفه بالتراب، فإن كشفه على حقيقته ينهزم الفريق الراكب وينهض الفريق المركوب ليركب.

حلو هذا الكلام؟ حلو. أنا لم أزعل أبدا لأن قرعتى جعلتنى فى الفريق المركوب، فأنت تركبنى وأنا أركبك ولكن بالأصول.. غير أن هذه الأصول فى عرف العيال أمثالنا تصبح محتاجة لشىء من الزلزلة حين يبدو أن ركوب الراكبين بلا نهاية. ولقد انقصم ظهرى والولد المعصوب العينين يتلقى سفع التراب من كل ناحية ويعجز عن تحديد مصدرها، أعطونى عقلكم، لقد غلبنى النوم وأنا منحنٍ بحملى، فأخذتنى سنة فرأيت ولد الفريق الراكب وولد الفريق المركوب يتضاحكان فى سعادة ويحتضنان ويفعلان معا - فيما بدا لى - قلة أدب، فارتعشت، وفتحت عينى من خوف ومن فزع، فرأيتنى لا أزال منحنيا وراكبى يزداد ثقلا فوق ظهرى.. والولد المعصوب العينين يتلقى التراب دون ملل. فإن هى إلا برهة وجيزة ساهيتهم

جميعا واندفعت من بين ساقى راكبى فوقع فانكسرت رقبته فواصلت الجرى حتى دارنا .. فهل أنا غلطان؟..

الفرجة

لست أذكر بالضبط متى جلست أمام هذه الخشبة فى هذا المسرح. بل إننى لم أكن أعرف أننا فى مسرح وأننا نتفرج إلا منذ وقت قريب وبعد أن جلل الشيب فودى. ويخيل إلىّ أننى فى جلستى هذه على نفس هذا الكرسى منذ أن جاءت بى أمى ذات لحظة بعيدة جدا إلى هذا المكان وأسلمتنى إلى من أجلسنى، وربتت كتفى وألقمتنى حبة بونبون وزعمت أنها عائدة لتأخذنى بعد قليل ثم لم تأت بعدها أبدا - الواقع أننى غير واثق تماما من هذا ولكن أذكر أننى كنت أتسلل خارجا للحظات أذهب فيها خلسة إلى العمل أو دورة المياه أو لمقابلة فتاة ضالة أو للوفاء بموعد مع صديق غريب.

ولم أكن أعرف إذا ما كنت أحب الفرجة على هؤلاء القوم أو لا - كما لا أعرف إن كان الواقفون على الخشبة تحت دائرة الضوء ممثلين حقيقيين أو أدعياء أو مجرد دُمى تحركها يد خفية غير منظورة .. لكننى كنت قد بدأت أعرف أن فى الأمر ثمة مسرحية

غامضة وأن علينا جميعا أن نتابعها بدقة وانتباه حتى لو لم نكن نفهم منها شيئا على الإطلاق!

كذلك كنت أعرف أننى وهذا الحشد الهائل من الجماهير نجلس فى هذا المكان بحكم الانتماء لا بموجب تذكرة أو بطاقة دخول، وأننا لهذا نحبه حبا شديدا حتى ولو كانت جلستنا فيه غير مريحة ودورات مياهه تعج بالغائط النتن وتطفح ما فى جوفها على أرض الصالة الممتدة بلا نهاية ثم بدا أن ظلالا من الكآبة تلقى بثقلها على صدورنا جميعا.

فلما أن أطلت لنا من عيوننا هذه الأثقال فسرناها بفعل الشيخوخة التى نصفها دائما ـ تعزية لأنفسنا ـ بأنها على غير أوان. ثم إذا بنا فجأة نكتشف ـ بفعل ريح خرقاء ـ أن المسرح كان بلا سقف وأن الزخرف الجميل الذى كان يغطينا كان فى الأصل قماش خيم قبل أن تأكله يد البلى وتطير الريح بقاياه، ثم إذا بالنوافذ والمنافذ والأبواب قد فسدت أقفالها وانتزعت أبوابها فصارت تيارات الهواء تتلاقى وتصطك مرعدة وتكاد تبعثرنا جميعا فى صراعات، وإذا بكل المتابعين على خشبة المسرح قد بعثرت ثيابهم عن أجسادهم وظهر عريهم الغليظ وعوراتهم القبيحة حتى بات النظر إليهم فى حد ذاته شيئا مؤلما بل أشد إيلاما من العار نفسه. وكان من الواضح أن جميع الجالسين ـ برغمهم فى صالة الفرجة ـ يحسون بالعار الأهم.

وكان الشعور بالخزى والتقزز قد دفع بعضنا إلى محاولة الخروج من الصالة إلى الشارع. وكنا نعمل حسابا للبوابين الذين لابد أن

يأخذوا علما بخروجنا كى يسمحوا لنا بالدخول عند العودة . وكنا نسخر منهم لأننا سوف لن نعود إن نحن خرجنا هذه المرة لكننا لم نجد على البوابة ثمة من أحد، ففرحنا فلما اندفعنا فى سبيل الخروج وجدنا أن عتبة باب المسرح تقف بنا على ارتفاع شاهق وأن الفراغ من تحتنا عميق عميق عميق.. وليس إلى الأرض ثمة من سبيل. انهارت قلوبنا فى الفراغ القاتل إلا أن ثمة إحساسا داعينا بأن الأمر ربما كان مجرد رادع جهنمى الهدف منه أن نعود إلى أماكننا لنواصل الفرجة على نفس الناس.. من فرط الرعب صرنا.. تملقا لهذا الإحساس فحسب.. نواصل التصفيق بأكف ملتهبة!..

أسباب للكى بالنار

توبخنى أمى كلما اتسخت يدى.. وتقرصنى فى خدى قرصا موجعا إذا اتسخت ثيابى، أو قدمى بالوحل. ولا تكف عن تهديدى بالكى بالنار إذا أنا فعلتها على نفسى أثناء النوم؛ ولهذا فإننى أتجنب اللعب بالنار من قريب أو بعيد، وأنفر من شعلة عود الكبريت حين يشعل أبى سيجارته أمامى.

أما التوبيخ والقرص الموجع فهو يحدث كل يوم، وأما الكى بالنار فإنه قد حدث ذات يوم، سخنت أمى يد الملعقة على لهب البوتاجاز ولسعتنى بها فوق مؤخرتى، ولا يزال موضعها يوجعنى كلما تقلبت أثناء النوم، فأقوم فى الحال أجرى إلى دورة المياه.. وهكذا عوفيت من لسع النار كل يوم، ولكن لم أعد أعرف كيف أنجو من الوسخ والقرص الموجع..

المصيبة أننى لا أذهب إلى الوحل والوسخ ولكنه هو الذى يأتى إلىّ..

ففى الصباح أرتدى ثيابى وفوقها مريلة المدرسة نظيفة ذات رائحة حلوة، وأعلق الحقيبة الجلدية فى كتفى فوق ظهرى، وألبس الشراب الأبيض والحذاء الأسود وأضع الشلن الفضى فى جيبى بحرص، ثم تقرصنى أمى فى أذنى قائلة:

«شايف هدومك نضيفة إزاى؟.. إياك ترجع بيها روبة عشان أنيلك بستين نيلة».. ثم تفتح باب الشقة وتدفعنى إلى الخلاء وتتركنى أواجه الخطر وحدى. مكتفية بالوقوف على الباب عاقدة ذراعيها فوق صدورها تتفرج علىَّ وتطلق الصياح المتواصل.

أتخطى العتبة، لأفاجأ بحوش البيت كله وقد صار بركة كبيرة من مياه المجارى يذوب فيها الغائط، ارتفعت مياهها وغطت ثلاث درجات من السلم الذى نهبط منه إلى الشارع.

وإذ أقف حائرا مترددا موشكا على البكاء تنفجر أمى صارخة فى أن أنتبه لخطواتى، ثم تندمج فى لعن ناس مجهولين ليس فى قلوبهم رحمة أو ضمير، فأعرف أنها تقصد أصحاب البيت الذى نسكن فيه، حيث إنهم ابتنوا فوق شقتنا وأمامها وخلفها اثنتى عشرة شقة دون أن يبتنوا لها خزانات للمجارى، اثنتا عشرة أسرة غير أسرتنا تدلق مياه غسيلها وغائطها لتتجمع كلها فى خزان شقتنا الكائن تحتها وفتحته أمام بابها.

وكان الحل الوحيد ـ كما يقول أبى ـ أن يتم كسحه بعربة البلدية ثلاث مرات فى اليوم على الأقل، ولما كان هذا أمرا صعبا فإن الجميع استصعبوا مهمة الكسح من أساسها، خاصة أنهم إذا نجوا

من مجاريهم الخاصة لن ينجوا من المجارى العامة التى تنفتح هى الأخرى زاحفة علينا من كل ناحية. تغرق الشارع كله وتصنع بركا ومستنقعات متجاورة تطفح بالنتن..

وثمة ناس يظنون أنهم من أهل الله يتطوعون بجلب عربات كبيرة من التراب والرمل يدلقونها هنا وهناك لتصد غائلة الموج النتن عن مداخل بيوتهم، ولكن السيارات تمر فتحفر لنفسها قنوات غائرة، والناس يمرون فتصنع أقدامهم مدقات رفيعة لولبية، والمياه النتنة لا يحتجزها حاجز، فتلف حول الأكوام الهرمية، حتى باب الشارع والمدينة كلها مجموعة من الأهرامات القزمية مزروعة كجذوع أشجار خرافية وسط بحر من الغائط النتن.

أحاول فى وقفتى على العتبة تذكرالناس وكيف يسلكون طرقهم لكى أفعل مثلهم، فأرى الواحد منهم أفنديا محترما نظيفا يمشى على مدق رفيع حول كومة هرمية، ثم يقفز مثل الكلب متخطيا بركة عريضة، ليصعد كومة هرمية أخرى، حيث يهبط من حذائها ليتساند على الحائط.

أحس أننى لن أستطيع هذا.. ترتعش ساقاى وأهم بالبكاء لولا الخوف من فردة الشبشب التى يمكن أن تجتاحنى فجأة من وراء الباب.

أتذكر مواضع القدم التى لابد أن أكون قد حفظت خطواتها بالترتيب إذ يجب علىَّ أولا أن أتقدم بحذر لأضع قدمى اليسرى فوق حجرة كبيرة مدببة مثبتة بجوار فتحة الخزان المختفية تحت

عمق المياه الوسخة، ثم أستند على الحائط لأنقل قدمى اليمنى إلى فردة كاوتش مثبتة بجوار الحائط تصنع لنفسها بركة صغيرة، أدوس فوقها برفق، أظل واقفا على قدم واحدة إلى أن أتمكن من نقل الأخرى إلى جوارها ثم أحود منكسرا مع الجدار، سائرا بجواره فوق شجرة ممددة فى قلب المياه كجثة غريق يتيم بلا أهل ولا بلد، سوف يبتل بوز الحذاء ولابد، ولكننى سأحاول السير بخفة حتى لا تصعد المياه إلى داخل الحذاء.

وحين أنتهى من السير فوق هذه الشجرة أميل لألقى بنفسى فوق كومة هرمية من الرمل الرطب، مجتهدا أن تقع يدى فوق الرأس الهرمى الذى لم يبتل بعد، ثم أتسلق الربوة الهرمية التى إن تجاوزتها صرت فى الشارع العمومى، حيث توجد مدقات وقطع من الحجر وفرد الكاوتش يمشى فوقها الناس، فأمشى وراءهم فى هدوء.

ومهما نجحت فى التزام المدقات المتعرجة والتقافز فوق قطع الحجارة فإن الخوف يظل يدفعنى إلى البكاء، ليس خوفا من السقوط فى بحر المجارى وإنما خوفا من السيارات التى تقبل خلفى صاعدة هابطة زاحفة والمياه الوسخة تفر من بين عجلاتها صارخة لتصفعنى على وجهى وتغرق ثيابى.

وقد تعودت على الشروع فى البكاء والانخراط فيه كلما أحسست بسيارة مقبلة، الأمر الذى يدفع بعض المارة إلى احتضانى حتى تمرالسيارة قائلين «متخافش يا حبيبى متخافش»، لكن ما أخاف منه يكون قد وقع.

أصل إلى باب المدرسة والعرق يتصبب منى، يتابعنى الأولاد والمدرسون ضاحكين. أنتبه، فإذا بمريلتى مبرقشة بالغائط الأزرق وقدمى ملطخة حتى لا أعرف الشراب من الحذاء.

يشير مدرس الألعاب نحوى بالخيزرانة فأخرج من الطابور أرتعش باكيا بصوت عال.. يضع إصبعه فوق شفتيه هامسا فى فحيح مخيف:

«هس س.. س.. اقطع خنس»

ثم يعاجلنى بخيزرانته: «إيه اللى إنت عامله فى روحك ده»؟

فأجأر بالصراخ والعواء، فيكف عن الضرب ليعود فيسألنى. لا أجد جوابا. يقفز بصرى المرتعب، ينحط هناك عند الباب الحديدى المغلق، أرى صورته تتموج فى مياه المستنقع الممتد أمام باب المدرسة. أتعجب كيف وصلوا إلى المدرسة وهم على هذه الحالة من النظافة بل كيف وصل بقية الأولاد.

وكنت أعرف أن بعضهم جاء المدرسة راكبا سيارة أبيه العائد من بلاد المال، وأن بعضهم الآخر خاض الوسخ مثلى ولكنه نجا من البرقشة التى تفضحنى.

أعود إلى البيت وطعم الدموع فى حلقى جاف وبقايا البكاء فى عينى وعلى وجهى لكن أمى لا ترى شيئا من ذلك. إنها لا ترى سوى شكلى وقد صار كما تقول كأننى ممسحة مسحوا بها أرض الشارع، فتستقبلنى بعلقة يهترئ لها كل جسدى، فيما هى تنزع عنى ثيابى

وترميها فى حلة الغسالة وتلعن العيشة واللى عايشينها .. فأدخل الغرفة أبحث عن منفذ للهرب قبل أن تغير رأيها وتعود وتضربنى، فلا أجد سوى النوم طريقا مظلما أختبئ فيه.

وكنت مستغرقا فى النوم ذات ليلة فعادنى الوجع فى موضع اللسع بالنار، أخذ يلهبنى، وكنت أعرف لحظتها أننى يجب أن أنهض فورا وأجرى إلى دورة المياه، ولكننى كنت أجد لذة خفية فى المراوغة والاستمرار فى النوم والمياه المحتبسة فى جوفى تزأر وتحاول الاندفاق وأنا أجاهد لمنعها بالقوة، ثم بى أسمع صراخا عاتيا تبينت فيه صوت أمى، تبعه هياج وريح لاسعة، فانتفضت من الفراش واقفا على الأرض، فإذا بقدمى تغوصان فى بركة من الغائط الأزرق النتن، وإذا بأمى تصرخ منبهة إياى ألا أتحرك، فتسمرت فى مكانى أرتعش، وكانت هى مشمرة ثيابها وكل إخوتى متكورين فوق السرير مثل الكتاكيت الفزعة، وثمة رجال ونساء من الجيران ينتهكون حرمة بيتنا ويتحركون فيه على راحتهم، يرفعون الكراسى والدولاب والترابيزات ويستخرجون من قلب المياه الزرقاء أكلمة وحصائر من البلاستك يشر منها الماء، يمسكون بالحلل والأكواب والجرادل ويكسحون المياه الزرقاء من أرض شقتنا التى تحولت إلى بحر صاخب هائج تكتسحه مياه المجارى متسلقة السرير والدولاب وكل شىء، كأن مستنقعات البلاد كلها اتصلت ببيتنا بوصلة سحرية.

وكانت الرائحة النتنة فوق ما يحتمله أى إنسان، وكان أبى قد عاد من الشغل فخلع بذلته الأنيقة ورباط عنقه وراح بالفانلة

والسراويل يساعد الناس فى كسح المياه ودفعها إلى خارج الشقة، حيث ترتد عائدة من جديد إذ لم يعد الشارع فى حاجة إلى مزيد.

وكانوا جميعا يسبون ويسخطون فأعرف من سبهم وسخطهم أن مياه المجارى قد طفحت من عندنا - أى من داخل البيت - وأبى يرد مؤكدا أنها اقتحمتنا من الشارع، فيما تصيح أمى مؤكدة أنها نزلت علينا من فوق.

ويجىء من عند دورة المياه صوت رخو أعرف أنه صوت جارتنا اللعوب الحسناء، التى يتهمها أهل الشارع بأن هذا المستنقع كله تخلف من استحمامها فى الرذيلة كل يوم، كان صوتها يقول فى ولولة طرية ممطوطة إن صنابير مياه الشرب تصب هى الأخرى ماء وسخا من مياه المجارى، وأضافت قائلة:

«لا من فوق ولا من تحت ياحبة عينى دى باينها من كل ناحية».

وكنت مسمرا فى جلستى على حافة السرير أخشى السقوط، وأحس أننا سنبقى هكذا مدة طويلة جدا ربما كانت بلا نهاية. ثم تذكرت أن المياه المحتبسة فى جوفى تريد الاندفاق فى الحال فشرعت أبكى منبهًا إلى ذلك. وسط المحنة ضحكت جارتنا اللعوب، وجاءت بالقصرية حيث وضعتها بين ساقى وساعدتنى فى تشليح ثيابى فاقشعر بدنى، ولكنها بيديها عدلتنى فى الوضع الذى يجعل بولتى تسقط كلها فى قلب القصرية. وكنت أراهم جميعا غارقين فى الوحل والغائط، وكان ذلك يحزننى ويرعبنى، لكننى كنت أشعر بشىء غريب كأنه السعادة تتمشى فى مؤخرة رأسى، ولم أكن أعرف

هل هو سعادة أم لا، ولكننى كنت أتوقع أنى من غد ربما نجوت من التوبيخ والقرص والكى بالنار.

الساعة

كنت أسير بشارع مزدحم وبراق، أظنه شارع سليمان أو ما أشبه. كنت أدفع جموعا هائلة من البشر فى كل خطوة حتى أخطو.

وكانت نساء القاهرة كلهن عاريات تفوح منهن رائحة الغاز. وهناك رجال يشبهون أنابيب الغاز يلعقون ظهور النساء ويضعون لهن النقود بين أثدائهن وبين أفخاذهن، فجأة رأيت أخى الصغير بجلبابه البلدى وطاقيته البيضاء، تفصلنى عنه أكتاف وأفخاذ وأثداء.. فرحت برؤيته، أخذت أشرئب بعنقى لكى يرانى.

كان هو الآخر يشرئب بعنقه، حتى إذا تقاربنا بدا كأن كلا منا سيمضى فى طريقه لكن كلا منا تهيأ لكى يسلم على الآخر، ولما مددت يدى مد هو الآخر يده من خلال الموانع الكثيرة وتلاقت يدانا فى لمسة سريعة تلقينا بسببها زجرا وشتما وتوبيخا واتهامات كثيرة.

ثم ذهب لا أدرى إلى أين. فتذكرت فى الحال أننى لم أكن رأيته منذ سنوات. وتذكرت أننى كنت أريد أن أسأله عن أشياء كثيرة جدا.

وانتصب سؤالى: ألم تعرفوا بعد شيئا عن أخى الأصغر الذى لم يعد من الحرب؟ ولكن السؤال لم ينطلق.

وفى الحال رأيتنى أسير فى جنازة، وسألت عن الميت فقيل لى إنه زوج شقيقتى الكبرى وأنه مات فى الحرب وجاء خبره. وكان يخيل إلىَّ أن الذين يسيرون فى الجنازة حولى سيلوموننى إذا انفردوا بى ولكننى لم أكن أعرف بالضبط علام اللوم. ثم إننا وصلنا إلى مكان أظنه المقابر، شىء واحد أكد لى أنها المقابر، ذلك هو الجميزة العتيقة التى تتوسط مقابر قريتنا.

وبينما كنت أقف بعيدا عن الذين راحوا يقيمون الصلاة على الجسد رأيت أخى الأصغر الذى لم يعد من الحرب حتى الآن والذى لم نتمكن من جمع أى معلومات عنه رغم أننا سألنا فى كل مكان. كان وجهه المستطيل ببشرته البيضاء مثلما عهدته ضاحكا على الدوام. كان يرتدى جلبابا ويتحزم فوقه بحزام الجند. احتضنته وبكيت.

ولما قلت له إننا دخنا فى السؤال عنه ابتسم كالعادة وقال إننا ما كان يجب أن نسأل. ثم سارت الجنازة من جديد لتدخل قلب المقابر وكان ثمة شىء من الاحترام يغلف الموكب رغم أننا من عائلة غير جديرة بالمجاملات، وقلت لنفسى:

هكذا تكون جنازة الشهداء الأبرار. وأحسست بالغيرة من المرحوم.

لكننى فجأة اكتشفت أن الدكتور هنرى كيسنجر والرئيس نيكسون والرئيس فورد يسيرون فى مقدمة الجنازة وكانوا أيضا

يتلقون العزاء. وأهل قريتى يحضرون فى شهامة ويسلمون عليهم ويبتسمون مثلهم. وفجأة لم يعد هناك أحد على الإطلاق، ولم أكن أرى أمامى سوى صحراء مترامية الأطراف تفح بالصهد ورائحة الغاز، وكان ثمة صوت لفقيه يرتل القرآن فى مكان ما. وكانت الشمس المعلقة فى السماء تتدلى فى الأفق البعيد مثل ساعة بلا عقارب وبلا ميناء.

قرافة السيارات

أفقت من النوم فجأة مثلما كان قد دهمنى فجأة، كان أول شىء لقى بصرى هو لمبة «الدينامو» الحمراء وبجوارها لمبة الزيت ذات اللون البرتقالى، وكان محرك السيارة قد توقف وكنت لا أزال جالسا على مقعد القيادة وحدى، ولست أفهم لماذا توجست فألقيت نظرة حذرة على المقعد الخلفى والمقعد المجاور لى. كان صف من السيارات يحاذينى لا يفصلنى عنه مقدار إصبع، بحذائه على اليمين صفان آخران وبحذائى على اليسار ثلاثة صفوف، بعد برهة تبين لى أن صفين منهما راكنان حيث لا تظهر من خلال زجاج السيارات رءوس سائقين..

عربة نقل الموتى هى التى تقف أمامى مباشرة وتحجب عنى الرؤية تماما، بصندوقها الرمادى الداكن الكئيب، وعبارة «تحت الطلب» تتلوى كالثعبان على جدران صندوقها الذى يشبه المقبرة. لم يكن ثمة صوت لمحرك أى سيارة من حولى. قدامى أو خلفى، ولا

أعرف إن كان سائقوها قد أوقفوا المحركات يأسا من الحركة أم أنها توقفت من تلقاء نفسها بعد نومهم كما حدث معى..

كذلك لا أعرف منذ متى توقفنا فى هذه المنطقة ولماذا. بحثت عن إشارة مرور حمراء فلم أجد. فتحت باب السيارة ونزلت. رميت البصر أمامى، فتعثر فى أسقف صفيحية حديدية خشبية بعضها صدئ وبعضها مصقول، لمركبات متوقفة فى مكانها لا حد لنهايتها وعلى مدى ما يستطيعه البصر ليس ثمة من دليل على وجود إشارة من أى نوع، فكان من المستحيل أن أعرف سبب توقفنا أو منذ متى توقفنا.

الراجلون يتدفقون من أماكن مجهولة، ينسربون من خلال السيارات، يتقافزون كالقرود المدربة. استحيلت مراقبتهم لمعرفة كيف يتسنى للمرء منهم أن ينفذ من بين سيارتين فى حين أن أوسع مسافة بين سيارتين تكفى - بالكاد - لنفاذ عرسة.. ثم إننى استحليت الأمر أكثر وأكثر،حيث تكشفت لى مواهب عظيمة فى أبناء جلدتى المصرية، هى قدرة الواحد منهم على امتصاص نفسه إلى داخله حتى ليصير حجمه فى رقة حجم العرسة، حتى ذوات المؤخرات القباب العاليات كانت القبة تعلو فجأة كالمطاط فيما تنضغط المؤخرة ويلفظ الجسد نفسه من بين سيارتين فى كل خطوة..

تذكرت أننى كنت ذاهبا فى مشوار شديد الأهمية قررت بالأمس ومن قبل الأمس بأمس أن أذهب إليه لأنهيه، بحثت فى ذاكرتى عن المكان الذى كنت أقصده والأمر الذى كنت أعنيه من ورائه فلم

أستطع وإن كنت لا أزال أثق أنه مهم وضرورى، بدليل أننى أنقله كل يوم فى مفكرتى لليوم التالى بالقلم الرصاص الملحق بها، كرة سوداء فى أول السطر، ثم كلمة واحدة ألخص بها المشوار أو أرمز بها إليه.

كان يجب أن أنوه بعض الشىء بكنه هذا المشوار أو طبيعته على الأقل.

لماذا لا يصرح الإنسان فى مفكرته عن مشاويره ومواعيده بدقة لكى ينفذها بدقة؟ أهو مسايرة لطبيعة المفكرة التى تقتضى رمزا فحسب؟ فلماذا لا يكون هذا الرمز صريحا معبرا؟..

أم أن الإنسان يخشى أن تقع منه المفكرة فيلتقطها أحد فيطلع على أسراره بالمجان؟ لست أعرف ولكننى أرتعد إذا ضاعت مفكرتى - رغم أنها مبهمة - أو دليل تليفونى الصغير - رغم اقتصاره على خيرة أصدقائى؛ ولهذا أضعهما فى مكان دفين يعوقنى أحيانا عن سهولة استخدامها، مثلما أضع سلسلة المفاتيح بحرص شديد فى جيبى الداخلى الصغير حتى لا أنساها فى مكان ما فأتشرد يوما أو بعض يوم أو ربما إلى ما لا نهاية. رغم أنها لم تعد تستخدم فى فتح شىء ذى بال، كثيرا ما انتويت تخفيفها، والإبقاء على مفتاح السيارة وحده ولكن وجوده بين مجموعة من أبناء جنسه بدا لى أكثر حفاظا عليه.. أخذت يمناى تداعب سلسلة المفاتيح فى ثقب «المارش» ويسراى تداعب جيوبى بحثا عن المفكرة فلم تصطدم هذه ولا تلك بشىء، ففزعت، وصرت أمعن فى البحث بدقة وأنا أتعجب كيف دارت السيارة بدون مفتاح، حاولت تذكر متى ركبتها وأدرتها فلم

أفلح لأن ذلك بدا لى منذ زمن بعيد بعيد بعيد، كذلك حاولت تذكر آخر مرة أخرجت فيها مفكرتى فلم أفلح.

أحسست بقلبى يغوص فى دوامة من الاضطراب والقلق بردت له كل أطرافى حيث تذكرت فجأة أن بطاقتى العائلية ورخصتى السيارة والقيادة كانت فى أحد جيوب المفكرة، ثم إن حقيبتى نفسها ليست موجودة هى الأخرى مع أننى لم يحدث فى يوم من الأيام أن خرجت بدونها لأنها تنفعنى على الأقل فى حمل البطاقات التى بدونها لا وجود لى فى هذه المدينة..

البطاقة العائلية والبطاقة الفئوية والبطاقة التموينية وكارنيه النقابة وبطاقة التموين وكارنيه الأمن لدخول المصلحة التى لا أذكر آخر مرة دخلتها، وجواز السفر الذى لم أعد أستخدمه مطلقا..

أخذت أنفخ من الغيظ وأقاوم الرغبة فى الصياح والبكاء بصوت عال. يطرأ علىَّ ذلك الخاطر التقليدى المتاح ينبهنى بتأجيل ذلك الآن حتى لا أنشغل عن الطريق وقيادة السيارة. أنظر حوالى وأسأم رؤية أشباه البشر، ولا أحد يقول لى لماذا نحن متوقفون هكذا ومنذ متى . تبينت أننا فى شارع عمومى دائرى حول المدينة، على اليمين ـ بعد صفوف السيارات ـ بناء من الطوب الأحمر المنسق على شكل مهيب يقف أمامه ثلاثة جنود يشرعون بنادقهم فى وجوه المارة وأقفيتهم وبطونهم ومؤخراتهم وتستدير البنادق خلف من يستدير ويمتط سلاحها ليمشى وراءه أينما اتجه. فيما يظل الجندى واقفا بخوذته البيضاء وبذلته السوداء كالخفاش الأبله. وعلى اليسار ـ بعد

صفوف السيارات كذلك ـ بناء قديم كالح غليظ الجدران يبدو أنه موغل فى القدم، سرعان ما تبينت أنه مصنع للثلج. ثم سرعان ما تبينت أن فى الجو أصواتا طغت على صوت الوشيش والطنين المتصاعد من مصنع الثلج، محركات سيارات استأنفت الحركة، موسيقى أجنبية راقصة مصحوبة برطانة أجنبية وفحيح مجون، صوت الدربكة على الواحدة الكبيرة تتبعها شخاليل تتراقص معها أرداف وأفخاذ تمشى بين السيارات كرقصة الحياة أصابتها فى السماء رصاصة مزقت جناحيها.

فوجئت بأن صفوف السيارات المجاورة لى من الناحيتين تزحف، فخيل لى أن سيارتى هى التى تتراجع إلى الخلف فداخلنى رعب شديد أربكنى، ومن ورائى تندفع نوافير الصياح الآلى المقلق المتدفق.

تبينت أخيرا أن علىَّ أن أدير محرك السيارة فلم أجد المفتاح ومن حسن الحظ أن «الكونتاكت» كان مفتوحا. طلع لى من تحت الأرض من رأيته يدفع سيارتى بيديه قائلا لى: عشق . فوضعت عصاة الفتيس فى خانة السرعة الثانية ثم أخذت أرفع قدمى اليسرى عن «الدبرياج» شيئا فشيئا فيما تدوس قدمى اليمنى على البنزين حتى دارت السيارة كانت عربة نقل الموتى فى انتظارى بل كدت أصطدم فيها بعنف لولا ستر الله وقوة «فراملى»، ثم صارت أنهر السيارات تتدفق حوالى من كل ناحية، لكنها جميعا توقفت من جديد.

لا أدرى كم مر من الزمن، لكننى حين سمعت مزمارا ينبح خلفى رفعت بصرى عن الجريدة التى كنت أتصفحها لأعرف منها عدد السلع التى سوف لن تساعدنى الحكومة فى ثمنها بعد اليوم، وكنت قد اشتريت الجريدة من صبى يمر بالجرائد بين السيارات مناديا عن هذا النبأ.

وجدت الخلاء أمامى متسعا ولا أثر فيه لسيارة نقل الموتى، فعشقت ودست بنزينا واندفعت وقد سرنى أن السيارة أخيرا سوف تمشى على السرعة الثانية والثالثة بعد طول شحير وعواء على السرعة الأولى، لكننى فى اللحظة التى سحبت فيها عصا «الفتيس» إلى خانة السرعة الثانية توقفت السيارة التى أمامى فجأة فدست «فرملة» الخطر واهتززت فى جلستى ودق قلبى فأغمضت عينى متنفسا الصعداء وقد توقعت أن ينزل سائق اللورى ويوبخنى على اندفاعى.

غير أنى حين فتحت عينى وجدت اللورى لم يكن لوريا بل هو صندوق عال فى لون الذبابة الزرقاء التى تعف على جثث الموتى. له سلم حديدى وباب بدلفتين يجلس خلفهما شرطيان ببذلتين سوداوين وخلفهما باب حديدى آخر مغلق بقفل كبير من الخارج. سرعان ما فهمت أن هذه السيارة تنقل فى هذا الصندوق بعض المساجين أو المعتقلين من سجن إلى سجن أو إلى محكمة أو إلى حيث لا يعلم إلا الله.

كانت راسخة القدم فى وقفتها والشرطيان يأكلان البطاطا المشوية الساخنة وبين فخذى كل منهما مدفع رشاش. تذكرت

«سمير» شقيق زوجتى و «شريف» ابن خالتها وقلت لنفسى ترى أيكون أحدهما أو كلاهما فى هذه السيارة؟ وتقت لرؤية سمير الذى أحبه وأعيره كتبى، فخفق قلبى بشدة حين تذكرت أن بعض هذه الكتب ربما كتبت عليه اسمى وهى عادة كففت عن ممارستها منذ زمن..

حولت بصرى عن السيارة بحثا عن نسمة هواء. العربة المجاورة لى على اليمين تقودها امرأة فاتنة ناهدة الصدر ترتدى منظارا أسود ويتصاعد من سيارتها صوت موسيقى أجنبية لذيذة. خلف هذه السيارة مباشرة سيارة مرسيدس يركبها رجل يرتدى العقال والدشداشة، منتفخ الأوداج ملظلظ الوجه، يكاد بوز سيارته يصعد فوق مؤخرة سيارة الفاتنة. دققت فى الفاتنة فعرفت أنها وجه مشهور. دققت فيها أكثر بحكم الغريزة الجماهيرية إزاء المشهورين ـ حتى لو كانوا مجرمين عتاة ـ فتبينت أنها تتحدث مع لابس الدشداشة والعقال فى السيارة المرسيدس الخلفية وذلك عبر المرآة العاكسة وكانا يبتسمان فى نشوة من ينجح فى استغفال الحشود، الموسيقى الصاعدة من سيارة الفاتنة كانت ذات رائحة مفعمة بالدفء والفسوق، فعاودت النظر إليها بإمعان فلاحظت أن جسدها وإن جمد على إطار الجلسة أمام عجلة القيادة، فإن كل بقعة فيه كانت تنتفض وتتراقص فى لذة مثيرة للحيوان الذى فى داخلى.

أبدا لم يكن ذلك لمجرد أننى لا أتذكر أعضاء جسدها إلا هكذا، لاحظت أن شفتيها تتحركان على الدوام وكانتا تميلان نحو صدرها كأنها تصب الكلام، فى ذلك المصحف الذهبى المتدلى من عنقها.

ركبنى الجنون فاستدرت ناظرا بكل انتباهى إلى لابس العقال راكب المرسيدس فوجدته هو الآخر يلعب شفتيه ويضغط عليهما لدى كل جملة فيما يتململ فى حركة موسيقية لشدة سرعتها بدت ثابتة، ورأيت السلك الهوائى اللامع منتصبا فوق سيارته وفوق سيارتها فقلت لعلهما يمارسان اتصالا خاصا وحديثا على الهواء. ثم عدت وقلت لعلها أحلام دهماء سقيمة الخيال.

لويت عنقى فى سأم إلى الجهة الأخرى، فرأيت جموعا هائلة من البشر تقف على الرصيف متهالكة تتساند على الهواء، يطل من عيونها موات وسأم وانتظار ميت الأعصاب، عرفت أنهم ينتظرون الأتوبيس، ثم وجدتنى واقفا بينهم أنفخ من غيظ ومن ألم. ثم جاءت نفس الفتاة التى كنت أقابلها كل يوم على مثل هذه المحطة، ابتسمت لى كالعادة ابتسامة تقاوم الكد والتعب والهموم والكذب على النفس، وصرت أبرطم وألعن كل الرءوس الشاهقة، وهى لا تنى تهدئ فى أعصابى وأنا أندفع فى مزيد من العصبية والهياج رغم خوف كامن فى قعر البطن ينذرنى بالويل مما أفعل.

ثم رأيتنى منحشرا فى الأتوبيس والفتاة منحشرة بينى وبين الجدار الزجاجى الفاصل بين الدرجة الأولى والدرجة الثانية، وكنا نتكلم فى مشاكلى فى العمل. ومشاكلها مع أهلها حول انفرادها بمرتبها الذى هو فى الأصل ضئيل لا يكفى مواصلاتها، ثم نعرج بابتسامة واهنة على موضوع الشقق السكنية التى لم يعد إليها ثمة من سبيل.

ثم رأيتنى نائما على السرير السفرى الصدئ البارد فى شقة حماتى الكائنة بأعماق حارة تسبح فى العفن والظلام والرطوبة وصوت حماتى الممرور يأتينى من الفسحة وينفذ إلى أذنى عامدا من تحت المخدة وشرائح التعب الثقيلة ، وصوت الفتاة التى باتت زوجتى على سنة الله ورسوله يأتينى هو الآخر من خلال صوت أمها ينتحب فى عذاب مكتوم قائلا:

«وأنا حاعمل إيه بس يارب فى بختى.. دا غلب ومكتوب على حاروح منه فين وأروح بيه فين؟»

لم أغضب لقولها ولكننى عجبت من نفسى كيف تمكنت من معاشرة هذه السيدة التى هى عبارة عن حزمة من الأسى والغلب ملفوفة فى غلاف شكل إنسانى، والتى إن عبرت عن لذتها فى لحظة لذة جاء تعبيرها بنفس هذه النبرة الباكية الأسيانة وهذا الصوت الدامع الشقى.. تتلذذ مثلما تبكى وتبكى مثلما تتلذذ.

ثم تبين لى أن السرير لم يكن سريرا والشقة لم تكن شقة، بل كان على التحديد الكبينة الخلفية فى سيارتى. ذلك أننى فوجئت باثنين من الأفندية يبدو أنهما من شرطة الآداب يطرقان شباك سيارتى بغلظة ويشيران إلينا بالنزول ، فنزعت نفسى من زوجتى وفتحت باب السيارة ونزلت خجلا، شخط فى أحدهما وتفوه الآخر بألفاظ سباب فى حق زوجتى خيل إلى أنه قالها ثم خيل إلىَّ أنه لم يقلها واسترحت إلى هذا الخاطر. أخرجت من حافظتى بعض الأوراق وتلعثمت قائلا إن هذه زوجتى، وأننا هربنا من ضجيج

الحارة والمدينة، ثم عدت فقلت بقليل من الغلظة والتحدى إننا فى الواقع ليس لنا شقة نسكن ونمارس فيها حياتنا الزوجية. وإننا تبعا لذلك نسرق اللحظات.

فلما شخط فىَّ بعنف رافضا هذا الكلام قلت بكثير من الضعف إن العمر فات من بين أصابعنا وإننى بعد خمس سنوات من الشقاء فى بلاد الغربة عدت بهذه السيارة المتهالكة ومبلغ ضئيل لم يرق إلى مستوى حجرة، صرفته فى الدخلة على أمل أن نسافر سويا من جديد من أجل البحث عن شقة تأوينا، وها أنتما تريان أن العمر قد انسلت من بين أيدينا فى شوارع المدينة فى انتظار شىء لم يحضر وفى سبيل شىء لم نفعله ولم يعد فى طوق أى منا أن يغترب من جديد فلا يسع المرء أن يظل يضرب فى بلاد الغربة طول عمره.

لكنهما لم يقتنعا بهذه «الفلسفة» الفارغة وأصرا على اقتيادنا إلى مخفر الشرطة.

ثم إذا بنا - زوجتى وأنا - ننام جالسين متحاضنين فى خوف وهلع فوق دكة خشبية فى ليل كالح بارد صلب، وبدا من الصعب معرفة ما إذا كانت الدكة الخشبية هذه فى مخفر الشرطة أم فى عيادة المستوصف الشعبى أم فى مبنى التليغراف والتليفون الذى أنتظر فيه مكالمة أطلبها من البلد فلا تجىء أبدا، أم لعلها دكة فى الأتوبيس.

وكنت أعرف منذ برهة أن زوجتى راغبة فى الذهاب إلى دورة المياه، وكانت توحوح، فأنهضتها ومشينا على حذر فى ضوء لمبة

سهارى مجهولة المكان، فاصطدمنا فى السرداب بشرطى بدا أنه غير عابئ بأمرنا، فتحديناه وسألناه عن دورة للمياه فأشار لنا إلى مكان بعيد. ذهبنا إليه ونحن ننظر خلفنا فى كل خطوة. فإذا بنا فى شارع والقيامة قائمة، عربات الخضر تحمل أكواما من الزبالة تبيعها بالميزان لنساء لا تتعبن من المساومة بخناقات حامية الوطيس، وعربات رش ودراجات وموتوسيكلات وصناديق آلية تمضى خلال الزحام ترش الناس طينا وغائطا..

وبدا أننى وزوجتى نقف فوق ربوة عالية قليلا إذ رأينا كل هذه الجموع وحشود الأشياء تلف حولها فى دوامة كقطع الدومينو تحركها كفان غليظان غير مرئيين. صرنا نهبط بين سيول الوحل والقاذورات قاصدين البناء المميز الذى أشار إليه الشرطى. فدخلت زوجتى من باب ودخلت أنا من باب فى الناحية الأخرى وكان الظلام عظيما ونتنا، أحسست بقدمى تغوصان فى عجين نتن. تحسست الجدران فى تأفف ولعنت الدنيا وكل شىء بحثا عن صنبور المياه الذى كنت أسمع خريره المتواصل فى قعر الكوب الصفيح المخروم لابد من كل ناحية، ما أن اقتربت يسراى منه حتى اصطدمت يمناى فى جثة متقرفصة فى الظلام فصرخت وصرخت الجثة وانتفضت وانتفضت الجثة. ووقعت أنا فى معجنة النتن وفر هو هالعا. تشقلبت فى اللزوجة التى بدا أنها لم تعد مقززة، ثم انتفشت واقفا كبهلوان. واندفع من داخلى مارد راح يتقافز فى فراغات ضيقة ويتصادم جدران وأبواب خشبية فيدفعها بقوة فتصطك خرساء فيتجاوزها فيصطدم بصره ببروزات أكثر ظلمة على شكل خطوط

مستقيمة فأمسك بها فإذا هى شراعة باب حديدى أخذ ينزعه بعنف، وكان مغلقا من الخارج بجنزير وقفل كبير، لكن القوة الشيطانية عوجت العمود الحديدى فوسعت المسافة بينه وبين الآخر.

وبدا لى أننى أستطيع النفاذ من هذه الفرجة لو أننى تخلصت من كل ثيابى، فبكل ترحيب خلعتها واحدة واحدة ثم حشرت نفسى موقنا أن قدرة الناس على امتصاص حجمهم الجسدى كما رأيتهم حين ينسلتون من بين السيارات سوف تكون ـ لابد ـ موجودة فى أنا الآخر ولسوف أحسن استخدامها وإذ تمكنت بشق النفس وطلوع الروح من النجاح فى تسريب منطقة المؤخرة من بين العمودين الحديدين أدركت كم هى تجربة قاسية وقدرة يحسد عليها الآخرون، وكان كل همى حين نهضت عن الأرض مثخنا بالجراح أن أتخطى الشعور بالألم لأستبين الطريق منتويا أن أستنبت خريطته على التحقيق أن أختار الحوارى الجانبية والشوارع الخلفية التى يعم فيها الظلام حتى أستر هذا العرى التام الذى صرت إليه، لكننى ما أن وقفت على قدمى حتى صرت أضرب فى التيه كيفما أتفق سعيا إلى أى منفذ أو أى مختبر، وكان ثمة رقعة فى الفضاء يخف عنها الظلام تلوح «كالوشم فى ظاهر اليد».

صرت أركض خلف الليل وهو لاينى يغير عباءاته من الأسود إلى الرمادى إلى القرمزى إلى البرتقالى إلى البياض الناصع إلى البياض المصقول تتصاعد من مراياه حشود من ألسنة الضوء

الأصفر اللاهب تبدو كالسيوف والحراب تندب فى أقوى العيون، ولقوتها قد بدا أنها اخترقت كل عين تدب على هذه الأرض، إذ رأيتنى أقف عاريا على جسر حديدى يمتد فوق نهر عات، وكانت أمواج الناس والسيارات تزحف فى جميع الاتجاهات فى نفس الآن، وموج البحر يزحف تحتنا حاملا فى جوفه قرص الشمس إلى ما لانهاية، وكنت تجففت تماما فيما أنظر فى موج النهر فأرانى وموجات الناس والسيارات فى قلب النهر ومن فوقنا عشرات الجسور ومن تحت عشرات الطبقات من الأمواج والناس وسيارات تزحف متداخلة وعشرات الآلاف من السيارات ترتفع مع الموجة ثم تنكفئ بحدة لتغوص حيث لا يبين لها أثر وحيث تنكفئ فوقها عشرات آلاف غيرها..

وكنت لحظتها أرى جسدى ينكفئ هو الآخر تحت سنا أرتال السيارات والراجلين فلا يبين له أثر ثم يعود فينحاد عنها ويظهر من جديد واقفا تحت سهام الشمس فوق الجسر مرتكنا بمرفقه على الإفريز ملقيا ببصره عميقا فى قلب رؤية لا قاع لها على الإطلاق إن هى إلا منظر لمشهد بشع يتكرر بحذافيره تحت وفوق بعضه فى أعماق لا نهائية..

لكننى اهتززت من الأعماق فى وقفتى حتى أشرفت على السقوط فى هاوية القاع الذى بلا نهاية.. شهقت صارخا وتشبثت بحد الإفريز وحين فتحت عينى لاهثا تتسارع دقات قلبى رأيتنى جالسا أمسك بعجلة القيادة فى قوة، وعشرات المئات من آلات

التنبيه تزن وتعوى كسياط الجلادين تنهال فوق الجسد المنهوك، ولم أكن منتبها إلى شىء قدر انتباهى إلى أن عجلة القيادة كانت إطارا من الصقيع الثلجى رغم أن العرق كان يتصبب منى.

وكان على أن أزحف بسيارتى ربما بضعة أمتار لا أكثر كى يلحق بى من ورائى، ولكننى ما كدت أبدأ السير حتى كانت المسافة التى تركتها السيارة التى كانت أمامى قد شغلتها سيارات جديدة لا أدرى من أين جاءت ولا كيف فتعين علىَّ أن أواصل الوقوف كما كنت وإن زحفت مقدار نصف الخطوة ولم تكن الشمس طالعة، لكنها كانت تحول كتل السحاب الكثيف إلى ستائر من الدمور الغامق أو الدبلان أو الساتان فى بعض الأحيان. لكننى لم أكن أعرف كم الساعة الآن، إذ أننى فى العادة لا أحب حمل الساعات أو لبسها إذ هى مجرد حلية فى بلادنا يعلقها الناس فى المعاصم باعتبارها نقودا متجمدة لوقت عوزة ولماذا أحمل ساعة؟ الأقول لسائلى عن الوقت ليضبط، أن الساعة كذا ونصف ودقيقة وأربع ثوان.

بنفس هذه الدقة أزدريها وأمقتها، لا أرد بعنف عدوانى على كل من يسألنى كم الساعة: «ممعيش ساعة» ـ كما لو كنت أصفعه بالقلم على وجهه. غير أننى فوجئت اللحظة بأن فى معصمى ساعة تدور كانت تضغط على معصمى فتحسستها بيدى اليمنى لأتأكد من وجودها. وعجبت من أن يوضع فى معصمى شىء لم أحبه ولم أسع إليه مطلقا، ولست أذكر على التحديد ما إذا كنت قد تلقيتها على سبيل الهدية من أحد أو اشتريتها بحرٍّ مالى، لكن حجمها فى يدى

وصوت تكتكتها المألوف المميز أكد إلى أنها ربما كانت ساعتى القديمة التى كان أبى قد اشتراها لى بالتقسيط المريح بمناسبة دخولى الجامعة لكى أضبط عليها مواعيد دروسى ومذاكراتى، غير أننى كان لدى مقياس آخر للوقت أكثر دقة وانضباطا هو شعورى الدائم القائم بأننى أتعلم على حساب إخوتى وألتحق بالجامعة بجوع أبى وأمى وإخوتى. هذا المقياس الخطير الناجع قام بواجبه خير قيام فبفضله ما تخليت عن حصة درس أو قصرت فى بلوغ امتحان..

وهأنذا قد حصلت على البكالوريوس وجاع فى مقابل ذلك خمس من إخوتى حرموا من التعليم وحكم عليهم بالهوان طوال حياتهم مهما كسبوا، كانوا جميعا يتضافرون فى الشغل وفى الشظف لتوفير نفقات تعليمى فى الجامعة فى العاصمة، لتربية الأفندى ليصبح من دمهم أفنديا يرتدى البدلة والحذاء ويرطن كذلك الذى كان يسومهم سوء العذاب وعسف الهوان على مدى الأزمان.. فماذا أفادوا وماذا أفدت؟ كل ما طرأ علىَّ من تغيير أننى كرهت الزمن برمته وبات فى ذهنى معادلا للهوان..

أغلب الظن أننا لحظتذاك كنا على وشك المغيب، وكنت أحس بغضب بارد مكتوم أن أنفاسى تحاول البحث لنفسها عن منفذ بين طبقات من الثقل المدعوم بقوى خفية خرافية، لم يكن يريحنى سوى حالة اليأس التى لاتنى تتسرب إلىَّ دائما كلما اهتاجنى الغضب.

نظرت فى الحشود الحديدية الصماء المحدقة بى من كل صوب وكنت لحظتها أسأل نفسى عن السبب المباشر الذى يثير غضبى على التحديد.

قلت لنفسى لعلنى غاضب لأن الوقت فيما يبدو قد فات ولن أتمكن من اللحاق بموعد الطبيب حيث يتعين علىَّ الوصول إلى البيت أولا واصطحاب ابنى عائدا به إلى عيادة المستوصف؟

ثم تذكرت أن هذا الموعد كان منذ شهور طويلة مضت وابتسمت فى مرارة، وعدت فتذكرت أنه كان قد تحدد للكشف على الولد موعد جديد قريب وأن الإشارة الحمراء يومها قد احتجزتنى ومن يومها وأمه تعيرنى بأننى السبب فى العلة الصحية التى أصيب بها الولد من يومها.

ثم زحف فى رأسى خاطر ثقيل الوطء مجتاح، أحسست فى زحفه أننى لم أر أولادى ولم يرونى منذ وقت بدا لى طويلا جدا كأنه الشهور أو الأعوام. وقلت لعل هذا هو السبب الذى يغضبنى فى جلستى هذه أمام عجلة القيادة داخل سيارتى الواقفة منذ زمن موغل فى القدم لسبب أجهله تماما كما أجهل أى نوع من الأقدار هو ذلك القدر الذى يتحكم فى تسييرنا أو تثبيتنا. ثم إننى نسيت ذلك فجأة وتذكرت أن سيب الغضب ربما يكون إحساسا بالجوع داخل السيارة، لكننى تذكرت أننى - حرصا أو عجزا - لا أمارس الأكل فى غيبة من الأولاد. لحظتئذ أحسست بالكآبة حين لم أستطع تذكر آخر مرة أكلت فيها بين الأولاد..

لا أدرى متى زحفت السيارة، بل لا أدرى إن كانت قد زحفت أم أن الأرض هى التى زحفت من تحتها. لكننى حين رفعت بصرى فجأة بدوت كالعائد من أصقاع بعيدة كانت أمامى مباشرة إحدى عربات الزبالة يجرها حماران. تكاد تضيع فيها سيارة صغيرة كالعنزة تقودها فتاة محجبة وثمة صوت عال لواعظ منفعل يتصاعد من مكان مجهول لكنه يملأ الدنيا سبابا ونعوتا قبيحة ويرفع لواء الجحيم لكل من يدب على ظهر الأرض.

ولم نكن فى شارع إنما كنا فى طريق، على اليمين مجموعة هائلة من ناطحات السحاب المزركشة الملعلطة، المهيأة للانهيار بين لحظة وأخرى. وعلى اليسار كانت الشريحة الأخرى من الطريق ذات الاتجاه العكسى وكانت محتشدة بالعربات هى الأخرى ومتوفقة، ومن بعيد أبنية متخفية فى زى حدائق غامضة مشبوهة، فرغم الصمت المطبق حولها يتصاعد منها - فى الخفاء أيضا - لغط نشوان مخربش، قوى مسيطر وذو نفوذ واضح وحاسم وصفوف سيارتها تحتجز لنفسها نصف شريحة الطريق بكل اطمئنان، وكثيرا ما يتضح أن السر فى طول كل هذا التوقف والثبات فى السير هو أن أحد رواد هذه الحدائق قد أوقف الزحف ريثما ينتهى من الرجوع خلفا والتقدم أماما وعدل نفسه - بكل راحته - فى مركن آمن، أو أن سيارة أحدهم قد توقفت هاهنا أو هاهنا كيفما اتفق، أو أن فلان الفلانى سوف يمر من هاهنا اليوم فى ساعة صفر فما بالك حين يمر بالفعل أو أن الطريق الفلانى قد اعترضته صفوف العسكر لذب السيارات عنه بأى شكل لسبب غير معلن ولا يسأل عنه أحد..

كان الراجلون يعبرون من الضفة إلى الأخرى فى يسر وسهولة واطمئنان رجال يجرون أطفالا وصبية. ونساء ويحملن أشياء، يبدون كالبلهاء المسحوقين خيل إلى أننى أعرف هذه المنطقة التى نتوقف الآن فيها وأرجح أن هؤلاء هم سكان العشش والعزب المتاخمة لهذه الضاحية الناطحية التى تم قيامها على الأرض فجأة فحولت كل ما حولها إلى عشش بالمسلح ذات منظر كئيب، لمحت بين الزحام صبيا مشردا يرتدى بيجامة قذرة ممزقة من عند الصدر والحقوين يحاول إيجاد منفذ لخطواته الواهنة بين السيارات فيمضى شوطا بالطول بين صفين لينزلق من فرجة أوسع بين سيارتين ليرتد عائدا نفس الشوط لينفذ بين أقرب فرجة مناسبة فى الاتجاه العكسى.

أخذ يقترب منى فأخذت أميز فى ملامح وجهه بؤسا عميقا. كان يبدو كأنه بلا أهل على الإطلاق، بل هكذا رجحت. لحظتها جاءنى إحساس بأن الآوبة إلى الدار مسألة فى طى الكتمان لا تزال إن لم تكن شبه إسطورية، وكان الصبى قد أمعن فى الاقتراب نحوى فقررت فى الحال أن أستوقفه وأعطيه كل النقود الفكة التى فى جيبى ورغم أننى بحثت فى جيبى فلم أجد فكة أو متجمدة إلا أن صوتى كان قد سبقنى ونادى الصبى الذى راح يتقدم منى فى حذر وخشية يصدهما عن نفسه بابتسامة شاحبة واهنة كانت عروق رقبته زرقاء بارزة والعناء على صفحة وجهه البرىء الحلو المسمسم الملامح بارز هو الآخر بل كان هو الأبرز.

لكأن سكينا انغرست فى موضع القلب إذ فوجئت بشبه كبير جدا فى الملامح بينه وبين ملامح وجه أعرفه معرفة النفس فلما

انحنى مقريا وجهه من نافذة السيارة ليكلمنى شممت رائحته وفاض بصرى على ملامحه فإذا هو ابنى بلحمه وشحمه ودمه. عصام؟

هكذا صحت كالملدوغ وإذا به يصيح فى فرح مشوب بالرعب كالمجنون: بابا.. آنت جيت من الشغل؟

قلت وأنا أطوق رأسه بيد حانية وأقبله فى شعره المجلد الخشن:

(أنا لسه مارحتش الشغل يا حبيبى)

فارتاع وجهه وأشرف على البكاء لولا بقية فيه من حياء أعرفه وبدا أنه لم يفهم قولى لكنه قال بذكاء ممروض أننى أسير فى اتجاه العودة إلى حيث يقيمون فكيف أزعم أننى ذاهب إلى الشغل ما أزال؟

فأخذت من فرحتى بذكائه وغضبى الموتور أهذى قائلا له إن صفوف السيارات التى أفقدها الزحام والبطء إلى حد الثبات رشدها فبات كل هدفها أن تسير، أن تتحرك ولو حركة دهماء مدمرة، هذه الصفوف هى التى اقتادتنى بزحفها العشوائى فى سراديب محددة إلى حيث لا أريد، أعادنى حيث كان يجب أن أذهب وأذهبتنى حيث كان يجب أن أعود فبدا أنه قد وقع فى لغز عميق خطر فقال مقاوما سلطان البكاء:

(كل ليلة أفضل سهْران ومتجيش) مسحت دموعه بيدى قائلا:

(أنت إيه اللى جابك هنا؟)

قال فى بساطة (أوصتنى أمى أن ألحق بها عند الجمعية الاستهلاكية لأقف بدلا منها فى الطابور)

وكان يبدو عليه أنه ينتظر منى فعل شىء ما، أنه ينتظر أن أضع يدى فى جيبى وأسحبها بشلن أو بريزة قائلا له:

(خد اصرف) على الأقل بمناسبة التقائه بى صدفة فى هذا المكان البعيد بعد وحشة طويلة.

وكنت أتململ على جمرات ملتهبة بحثا عن شىء أفعله أو كلمة أقولها يصلح أو تصلح بديلا لهذا الفعل العظيم الذى ينتظره، فلم أجد، وفجأة زأرت آلات التنبيه خلفى بغلظة شديدة وانتبهت، فإذا السيارات قد زحفت أمامى وبجوارى والولد ابنى يقع فى لخمة شديدة ويسبب لى لخمة أشد..

ربت على وجهه برفق ورسمت على وجهى أسخف ابتسامة تذوقتها فى حياتى وقلت له (بعد إذنك يا حبيبى .. خلى بالك حاجيلك بدرى) وكانت عصبيتى قد ارتفع أوارها بفعل زعيق آلات التنبيه ونظرات المستنكرين بعدوانية بالغة، فعشقت عصا الفتيس بسرعة وتركت السيارة تزحف منسلخة برغمها عن جسد ابنى فكأنها تخوض فى لحمى. من المرآة العاكسة رأيته يقف على الرصيف فى انتظار فرجة أوسع بين سيارتين ليندفع جاريا منها إلى الضفة الأخرى حيث يوجد بناء الجمعية.

ثم اندفعت السيارة تجرى كأنما يقودها شخص سواى. وكان الطريق أمامها قد امتد بخلاء مبهز ومفاجئ. فى نفس اللحظة كان

الليل قد نصب خيامه اللانهائية فوقنا وليس ثمة من ضوء على الطريق الذى بدا أننى لا أعرفه ولم أتعرف على شىء فيه مطلقا وكان ضوء سيارتى شاحباعليلا وكنت أستدل بفوانيس السيارات المتقدمة أمامى وأحاول تقريب المسافات بينى وبينها حتى لا أضل أو أقع فى مطب أو حفرة خطيرة.

وكان ذهنى سائرا غير ممسوك بشىء وكذلك لا أعرف إلى أين أنا ذاهب على التحديد، لكننى كنت مفتونا باندفاع السيارة كأننى ولأول مرة فى التاريخ أرانى ممتطيا سيارة تجرى. كأننى بلذة قصيرة النظر هوجاء أنتقم من طول التوقف والزحف البطىء الممل القاتل وأعوض كل المسافات التى فاتتى أن أقطعها بلذة.

من حين إلى آخر كانت تبدو فى الأفق بارقة ضوء، أظل أجرى نحوه بأقصى سرعة كأنه الهدف المنشود حتى إذا ما اقتربت منه تجاوزته دون أن أشعر له بأى وجود. طال الاندفاع وطال ثم إذا بإشارات ضوئية سريعة متعددة ملحاحة تلاحقنى من الخلف وتنذرنى بتوسيع الطريق لها ووقعت فى لخمة غير متوقعة اهتز لها مقود السيارة فى يدى، لكننى نجحت فى الانعطاف يمينا ثم إلى أقصى اليمين فإذا بى أرتفع بالسيارة فجأة بعد صدمة عنيفة فى أسفلها عرفت منها أننى اقتحمت الحاجز المرتفع الذى يحدد الطريق المرسوم عن فضاء مطبق مجهول، وإلى أن تمكنت من السيطرة على المقود كنت قد تأكدت من وقوعى بالسيارة من حالق

فى مطب فسيح، ارتطمت رأسى بالسقف حتى كادت تخترقه وانطرحت السيارة على جنبها عرجاء عاجزة.

بما تبقى فىَّ من حلاوة الروح فتحت الباب ونزلت أنظر حجم الخسائر فوجدت أن الأرض كلها قضبان حديدية بأسلاك شائكة تصل بينها وأننى سقطت بينها، فحمدت الله على السلامة، وتمزق قلبى على ضياع السيارة وكان الحل الوحيد أمامى هو أن أنام بداخل السيارة حتى يطلع الصباح، وحين أغلقت المسوجر ومددت الكرسى عن آخره ثم اضطجعت كنت أستدعى إلى الذهن عشرات الليالى السابقة التى نمت فيها فى السيارة وأتذكر الأفكار التى تتوارد علىَّ أثناءها وأتآلف مع المخاوف التى يبعثها الليل البهيم والوحدة ثم إننى غفوت قليلا أو هكذا خيل إلى.

على أننى فتحت عينى ففوجئت بقرص الشمس يخترق زجاج السيارة تتصاعد منه ألسنة اللهب، انتفضت جالسا أتصبب عرقا وماكدت أرفع رأسى وأنظر حوالى حتى فوجئت بعشرات المئات من السيارات المختلفة الأنواع والأحجام لكنها تتفق جميعا فى أنها هالكة غير صالحة للعمل، بعضها معجون فى بعضه تتساقط من بين عجائنه رءوس وأعضاء آدمية لقيت حتفها فى حوادث بشعة أو ربما ضحية لحظة انطلاق كاذبة كالتى مررت بها منذ ساعات. سيارات أخرى لا تزال سليمة بعض الشىء وإن كانت غير صالحة للاستعمال، لدهشتى رأيت فيها أناسا عجائز أحياء تتدلى لحاهم وشواربهم ويتصاعد منهم عفن أقوى من رائحة الجيف.

حاولت فتح الباب والنزول لكننى لم أقو على الحركة، ثم تبينت أن ساقىَّ قد كسرتا أثناء الوقوع من حالق دون أن أنتبه كل هذه الساعات، ولست أذكر إذا كان الألم قد عادنى أثناء غفوتى داخل السيارة أم لا لكنه الآن يسرى فى كل عروقى ونخاعى يرعدنى يزلزلنى فأتأوه صارخا من فرط الوجع.

بصعوبة فتحت زجاج النافذة وأخرجت رأسى صارخا أنادى رجلا يجلس فى سيارة على مبعدة.

قال بكل هدوء (علام تصرخ هكذا يا جدع؟)

قلت: (أغثنى أرجوك).

قال: (لست أقوى على الحركة).

قلت: (هل أنت مصاب مثلى؟)

قال: (كنت سليما ولكن طول المكث هاهنا يبس مفاصلى وجمدها تماما وأقتات على ما بقى على هذه الأرض من نفايات تدلقها اللوريات والعربيات الكارو كل بضعة شهور أو أعوام)

قلت: (فأين نحن الآن ما اسم هذا المكان الذى نحن فيه الآن؟).

قال فى استنكار عجوز دامع: (فكيف جئت إلى هنا إذن).

قلت باكيا بحرقة: (لم أجئ ولكننى جئت لا أعلم كيف)

قال العجوز ساخرا: (إيليا أبو ماضى حضرتك)

قلت وقد أدهشنى أن يصل هذا الاسم إلى هنا: (أرجوك فالأمر لا يحتمل التريقة).

قال كأنه يبكت طفلا مشاكسا: (نحن يا أخى فى قرافة السيارات)

قلت منزعجا: (ولكن العادة جرت ألا يلقى فيها غير السيارات الميئوس منها).

قال: (أما هذه فقرافة.. تلقى فيها السيارات بمن فيها بدون لزوم لوجع الدماغ).

أخذت أنتحب وألطم خدى.

قال العجوز دون أن تهزه حالتى: «غدا تتماسك وتعتاد الأمر .. مثلما قدرت على امتصاص حجمك إلى حد التلاشى لتنفذ من بين كتل الحديد وجحافل القضبان.. ومثلما قدرت على إنفاق سنى عمرك منتظرا داخل سيارة فى وقفة ممتدة إلى ما لا نهاية.. ومثلما قدرت على السباحة فى بحور الوحل والمجارى تقدر على أن تتماسك بقية عمرك ها هنا.. ولعلك علمت أن لا شىء هناك يستدعى العواء هكذا».

أدخلت رأسى واستويت نائما من جديد على الكرسى، تذكرت من خلال الألم القائم أننى لم يعد لدى مشاوير مهمة أقلق بشأنها، وأن الولد زمانه قد لحق بأمه فى طابور الجمعية الاستهلاكية، وتذكرت زوجتى عائدة تجره خلفها وتمشى مهانة تحمل على رأسها قدرا من زيت وصابون وملح وشاى، فأخذت جيوش الألم تهاجمنى من جميع الأنحاء وأنا أرسل فى الفضاء صراخى الحيوانى المجنون وليس ثمة من أصداء تجاوبنى على الإطلاق.

فك رقبة

كنت أجرى فى خلاء موحش، يتصاعد من جوفى شعور بأن ثمة من يطاردنى غير أننى لم أكن أعرف علام المطاردة أو إلام.؟ وحين نظرت إلى الخلاء أمامى وحوالى بدا لى أنه ـ رغم اتساعه الذى بلا حدود ـ ضيق غاية الضيق، حيث لم يكن لى وجهة معينة على التحديد، فقللت من اندفاعى، وهبطت فروة رأسى فأحسست كأنها كانت غائبة تماما منذ زمن بعيد. ثم بدا علىَّ كأننى أعرف أن ذلك الذى ربما كان يطاردنى يريد أن يظفر منى بشىء، غير أننى لم أعرف هذا الشىء على وجه التحديد وما كنهه وما قيمته بالنسبة لى أو للآخرين أو حتى للشياطين، إنما أشعر بحقيقة واحدة لا جدال فيها، هى ذلك الإحساس بالرعب إلى درجة لا رحمة فيها.

اعترانى الاندفاع من جديد فأطلقت ساقى للريح وثمة شىء كاليقين يطوف تحت فروة رأسى بأننى بعد مسافة قصرت أو طالت سوف أخرُّ على الأرض راكعا أطلب الصفح ربما، أو الرحمة ، وكنت

واثقا بأن ثمة من سيهتز من ركوعى ولهذا لم أكن قادرا على التمييز بين العرق والدموع فكلاهما ينثال بدفق مزعج مؤلم ولهذا أيضا قلت لنفسى إن العرق ربما كان دموع الجسد وأن الدموع ربما كانت عرق العينين.

كنت محتاجا إلى الركوع فاعتزمت التعجيل به إيقافا للتعب، وكنت تعبا مجهدا فخررت راكعا، فما أن لثمت جبهتى وجه الأرض حتى وجدتنى فى قلب حفرة عميقة هائلة وجسدى كله مغمور ينشع عطن. خفت لحظتها أن يكون ذلك من عملى فى ماضٍ لا أذكره الآن ولا أكاد أعرف عنه شيئا أى شىء.

وكان ثمة رجل معمم يجلس فوق كومة من التراب الطالع من هذه الحفرة، وكان ظهره لى فيما أحاول تخليص ركبتى المنكسرتين فى قلب عجينة طينية لدنة، وكنت أريد أن أصيح به منبها إياه لعله يقيلنى، لكننى حين شرعت أصيح لم أجد صوتى، وأدركت أن السبب هو إجلال قديم توارثته يمنعنى من الاجتراء على وحدته أو إزعاجه وأخذت أحاول رفع نفسى بكل نفس ذائقة الموت، وفى اللحظة التى خيل الىَّ أن صوتى قد عاد يهدر فى حلقى وأننى أستطيع التأوه على الأقل كانت سحب الصمت قد انجابت فجأة فإذا هذا الرجل يتكلم وإذا صوته يجلجل ويداه تهتزان وترسمان فى الفضاء أشكالا وتموجات إيقاعية. وعرفت أن صوتى لن يصل، لكننى مع ذلك تأوهت بصوت عال ثم جعرت، ثم هتفّت، ثم هدنى الإعياء من فرط هذا وحده، فانكببت على وجهى ساخطا ألعق

الطين العطن، ذلك أن صوت هذا الرجل وصوت الهدير الخاشع المرتد إليه من حناجر خرافية كانا يعلوان على صوتى الذى لا يلبث أن يغوص معى هو الآخر فى الحفرة. فمن للصارخ فى قلب حفرة بمن يسمعه؟...

هى الرحمة بالتأكيد، إذ وجدتنى أطفو شيئا فشيئا نحو حافة الحفرة، وكان من الواضح أن فيضانا مفاجئا قد حل بالحفرة رفعنى بقوة صعوده، فعرفت أن الحفرة التى وقعت فيها تابعة لخريطة المجارى، وقلت فليكن ما يكون السائل لكنه فيضان رفعنى من القاع السحيق.

تشبثت يداى بحافة الحفرة، أخذت أتسلق الساتر الترابى المرتفع، وكنت ألهث وفى أعماقى رعب لذيذ يوحى لقدمى بفنون من التشبث فوق هشاشة التراب، وكنت أرتدى أفرول الجندية وأحمل فوق ظهرى جربندية، ويتعلق فى كتفى مدفع كبير أحسست كأنه صديقى الذى أعرفه من زمن بعيد وقد أبى إلا أن يرافقنى فى هذه الرحلة الفاصلة التى سأعود منها ظافرا حتى ولو أكلنى المجهول.

أخذت أواصل الصعود ومن خلفى هدير آخر مختلف تطلقه نفس الحناجر الخرافية التى أحببتها هذه المرة لأنها كانت تشق صمت الفضاء فتضاعف تموجات الصوت من قوتى على الصعود بل كانت تقذفنى إلى أعلى قذفا، وكانت القوة المطلوبة للصعود قد بدأت تزيد عن حاجتى فعرفت أن الأرض قد استوت تحت قدمى، ولم يكن ثمة من خطر داهم يواجهنى كما كنت أتوقع، وكنت أنظر

عن يمينى وعن يسارى فلا أجد سوى صفوف متكررة لظلى بنفس الخوذة ونفس الخطوة المحسوبة المنتظمة وقد اعتراها نزق لعله من شدة الفرح باجتياز مانع سرمدى كان معششا فى القلب.

وسرعان ما انبعث أزيز يشق أجواز الفضاء، فلما نظرت للسماء وجدتها غاصة بأسراب من طير أبابيل تساقط حمما، فمع مدفعى صويت عشرات المئات من ظلال المدافع المجاورة لى فإذا بالطائرات الجهنمية تهوى نحو الأرض شيئا فشيئا وإذا هى مجرد عصافير ترفرف وتتوقف بكل براءة على فوهات المدافع تلتقط الأنفاس وتنفض الأجنحة مما علق بها من ذعر بائد.

وكنت أحس أننى قد وصلت إلى نقطة أمان عظيمة حقا، لكننى توجست الخطر فيها، وخفت أن تكون هى مجرد البرهة التى يستغرقها زمن القدر فى الوصول إلى ذروة الانفجار الماحق، فشرعت أنشر سيطرتى على القمة العريضة، بأن رحت أجوبها مستطلعا منافذ الخطر الذى قد يكون. فما أن خطوت خطوات حتى وجدت درجا حجريا عريضا سميكا منحوتا بدقة ومهارة يأخذ فى الهبوط إلى أسفل، أطلقت فى مساره كثيرا من الطلقات النارية ولففت حوله لأطلق من كل ناحية، فلما استيقنت من غياب الصدى شرعت أهبط الدرج فى حذر واستطلاع، وكان الخوف قد شرع يعترينى من جديد لسبب غامض فنفيته بقوة، ولحظتها تكشف لى أن الدرج لم يكن درجا ولم يكن حجريا بل كان أليافا سميكة منحوتة لشجرة عظيمة الحجم، وأننى لم أكن أهبط بل كنت أصعد

الشجرة، وكنت لحظتها ألبس الزرد وأواصل الصعود فى مهارة النمر وروح وخفة القط.

فلما استوت قدماى على أول فرع مونق أخذت أمشى فوقه والفرح يهدهد أعطافى. ذلك أننى ألقيت بصرى على شبكة الفروع العريضة المونقة فوجدت عشرات من الأبقار السمان الحلوب تقف فوق الفروع تأكل وترسل عيونا فيلسوفة لا تمل من التحديق كما لا تمل أثداؤها المنتفخة من إدرار الحليب..

تذكرت أن أمى كانت تحلم بواحدة من هذه الأبقار، وكانت لا تنى توصينى إذا ما لبست الزرد وطلعت هذه الشجرة أن أجىء لها بواحدة. انبثق بداخلى فرح غامر، ورأيت الخضرة حوالى تعانق الشمس فى قبلة عظيمة حارة من فرط حرارتها تبدو بلا نهاية.

ولم تكن الأبقار مربوطة وليس عليها ثمة من حرس، وكنت أحس كأن لى حقا أزليا فيها، وها هى ذى إحدى الأبقار تومئ لى صائحة بل أكاد أظنها تبتسم لى وتنادينى. اقتربت منها وأخذت أربت عليها بحنان وأفاضل بينها وبين الأخريات فتعجزنى المفاضلة.

ثم إننى سحبتها ومضيت فمضت ورائى تتبختر وتنقل الخطو على الأفرع المتشابكة فى رشاقة. ثم استطالت الأفرع تحت أقدامنا وماليث أن التحمت بالأرض فيما يشبه المرتفع الذى يكشف وراءه مباشرة عن منحدر. وبدأ صوت خطوات البقرة يقرع الأرض فى خبب واصطكاك. فلما نظرت إلى الأرض وجدت المرتفع مرصوفا وكذلك المنخفض. فداخلنى الانزعاج الغامض.

وما أن شرعنا ننحدر فى المنخفض المرصوف حتى شرعنا نتأهب لصعود مرتفع آخر مرصوف أيضا. وكان على قمته زئيط هائل ورءوس رجال ونساء وأطفال بدوا لى كأنهم غرباء عن هذه المنطقة. والكل يصوت بأنغام مختلفة الإيقاعات، وعجزت البقرة عن مواصلة الصعود فأخذت أصيح فى دفعها دون مجيب.

فكرت فى الارتداد والبحث عن طريق آخر لكننى فوجئت بأن المشكلة نفسها قائمة عند الارتداد لأن البقرة لن تتمكن من صعود المرتفع الذى انحدرنا منه، المطلوب إذن أن تنجح البقرة فى صعود أحد المنحدرين. كدت أبكى ، إلا أن البقرة وسعت ما بين ساقيها فعرفت أنها تستعد لإفراغ بطنها من الغائط. لكن مؤخرتها صارت تساقط أطباقا من الصينى وملاعق ما تكاد تصل إلى الأرض حتى تتكسر هشيما. وكان نفس الهشيم يتساقط من قمة الزئيط البشرى فلما تفحصته تبينت أنه هشيم زجاج سيارات فقلت لابد أن الزئيط والتجمع بسبب حادثة بين سيارتين وطلبت الستر من الله.

وبدا أن الرءوس فوق قمة الزئيط قد لمحتنا فصارت تضحك وتشير إلينا ثم تأخذ فى الهبوط نحونا كالقردة مما أخافنى، لكننى لما رأيتهم يتجهون تلقائيا نحو البقرة ويمسكون بمؤخرتها ويساعدونها على الصعود بدفعها بقوة عجيبة عرفت أنهم من أهلنا وإن كنت لا أعرفهم أو يعرفوننى..

أخذت أبادلهم حديث المجاملة فسألتهم عن سر هذا الزئيط فقالوا لى إن «حميدة» قد ولدت اليوم ولدا.

قلت رغم أننى لا أعرفها: طيبة وغلبانة حمدا لله أن رزقها ولدا ينفعها ألهذا تفرحون؟

قالت جوقة الأصوات الهمجية اللطيفة: نعم ولهذا نبكى ونصرخ من أجلها أيضا.

قلت: كيف؟ لماذا؟

قالوا: لأن الحدأة قد اختطفت رأسه.

قلت: أى حدأة؟

قالوا: أى حدأة، إذ أن حميدة كانت تستعجل قيامه واستقامة عوده فجلست على الطريق فرحة تحاول تدريبه على المشى والنهوض فما درت إلا وجسده بين يديها بلا رأس والدم ينزف من عنقه المبتور.

قلت: يا حفيظ يارب، ثم واصلت الصعود. ثم وقفنا جميعا وسط الزئيط تمسح عرقنا ونلتقط الأنفاس، والبقرة المسكينة هى الأخرى تتصبب عرقا وتنظر فينا فيتصاعد من عينيها صبر عريق بارد محزون. وكنت مطمئنا إلى أن مقودها فى يدى، فأخذت كالموتور أبحث بلهفة وحيوية غريبتين عن شىء لعله جثة الطفل الذى اختطفت الحدأة رأسه وصيرت الأمل العزيز بين يدى الأم كتلة من اللحم الأغر.

وحين تمكنت من الغوص بين كتل الجماهير تكفلت البقرة من ورائى بشق طريق مريح لنا. وكنت أتوقع أن أكون موضع أسئلة كثيرة

من الجمهور الذى ساعدنى على صعود المنحدر وتركنى أغوص فيه ببقرتى، لكننى حين وجدتهم لا يفعلون بل يصبحون هم موضع أسئلة منى تيقنت من أنهم رهط من بقايا عشيرتى وبلدتى البكر الطيبون، كانوا يمشون فى فروغ بال وثمة شبه كبير جدا بين حالتهم تلك وبين ما يتصاعد من عينى بقرتى، إذ تنضح وجوههم بصبر عريق بارد ومحزون وكان منهم من يتطوع بمساعدتى فى سياقة البقرة وذب الأطفال عنها، وقلت لبعضهم بصبر نافد:

أين حميدة إذن؟

فأشاحوا عنى بوجوههم كأنهم يتهربون من سؤالى وهم فى نفس الوقت يشيرون لى بإشاحة الوجوه نحو مكان بعينه.

نظرت إلى حيث اتجهت وجوههم، فرأيت جسرا حديثا من الحديد والأسمنت ذا إفريز ودهاليز يمتد فيخترق العمائر ويشطر الأبنية العتيقة الثمينة ويمتطى ظهر النهر ويتلوى وتتفرع منه قنوات وأرجل ورءوس لا حصر لها كحيوان ديناصورى خرافى، وأسرابا لا حدود لها من السيارات مجهولة البدايات والنهايات تزحف متداخلة متعارضة متقابلة فى نفس الآن..

انبهرت حقا، ولكننى حين رأيت كثافة الزحف فوقه أحسست بالخطر الداهم يجتاحنى فجأة. ثم رأيتنى فى الحال أمشى فوق هذا الجسر بين السيارات ساحبا بقرتى، ومع ذلك لم نصطدم بأحد ولم يصطدم بنا أحد، بل كان يخيل إلىَّ أننى أمشى فى تطامن وهدوء لا يزعجنى سوى هبوب الرياح العاصفة الزائرة

بـأصـوات المحـركـات وهـى تـنـزلـق حـوالـى مسـرعـة إلـى الأمـام مـثـيرة عـواصـف الـغـبـار. وقـد عـجـبت من شـىء واحـد هـو اطـمـئـنـان بـقـرتـى الحبيبة التى لم تتزعج ولم يركبها الهياج فتكون الكارثة.

لـكن بـدا أنـنى قـد حـسـدتـهـا، إذ بـهـا فـجـأة تـتـوقـف دفـعـة واحـدة وتحرن عن السير وأنـا أشـد المقـود حـتى تـكـاد رقبـتهـا تـخـتـنـق، ممـا اضطـر السـيـارات إلـى الـتـلـكؤ والـتـوقـف والـزأر المـتـواصـل بـالاحـتـجـاج المهـول. وقلت لنـفـسـى لابـد أنـهـا فـعـلت ذلـك لحـكـمـة أو لـسـبـب من الأسباب طرأ.

من فرط حيرتى وعـجـزى تـوقـفـت نـاظـرا فـى الأرض أنـفـخ غـيـظـا وسـخـطـا، وكـانـت إطـارات الـسـيـارات تـتـحـرك أمـامـى بـبـطء، فـعـلـقـت بـهـا نـظـراتـى فـإذا بـى أرى قـطـعـا وفـتـافـيـت من الـلـحـم الـبـشـرى عـالـقـة بـهـا مسـحـوقـة بـين أضـلاع الـكـاوتـشوك المتين الجديد، وبقـايـا دم مـتـجـلـط فـأحـسـسـت بـالارتـيـاع، ومـع ذلـك لم أسـتـطـع إغـمـاض عـيـنـى، فـوقـع بـصـرى عـلـى بـقـايـا أصـابـع طـفـل صـغـيـر مـحـشـورة بـين أضـلاع الـكـاوتـشـوك، فـصـرخـت وظـلـلـت أصـرخ عـالـيـا مـشـيـرا بـإصـبـعـى نـحـو الإطـارات الـزاحـفـة فـى بـلادة ولا مـبـالاة وجـبـروت. ثـم إذا بـرهـط من راكـبـى الـسـيـارات الـبـكـوات قـد نـزلـوا من سـيـاراتـهـم وأقـبـلـوا نـحـوى وسـحـبـوا بـقـرتـى بـقـوة ودفـعـوهـا دفـعـا إلـى الإفـريـز وأوقـفـوهـا فـوقـه واستأنفت السيارات هديرها وزحفها، ووقفت جوار بقرتى وحيدا.

وإن هـى إلا بـرهـة وجـيـزة حـتـى رأيـت سـيـارة كـبـيـرة محـمـلـة بـرجـال الشـرطـة مـقـبـلـة نـحـوى. ثـم تـوقـفـت وهـبـط مـنـهـا سـبـعـة رجـال غـلاظ شداد تقدم نحوى أحدهم قائلا:

«بتعمل إيه هنا يا خويه.. إيه إللى جابك هنا؟»

قلت له بصدر مضطرب وصوت ينضح بالبكاء «لقد عثرت على جثته وكنت أصيح فى طلبكم منذ برهة لتروها بأنفسكم»

نظروا إلى بعضهم فى تشكك ممزوج بكثير من الهزل وقليل من الجد: «جثة من يا أخانا؟»

قلت: «جثة عبد الصمد»

قال: «عبد الصمد من؟»

قلت: «ابن حميدة. الذى قيل إن الحدأة قد اختطفت رأسه ورأيت أنا جسده مسحوقا وموزعا بين إطارات هذه السيارات»

قال: «أمعك بطاقة شخصية؟»

تحسست جيوبى فلم أجد بها شيئا، لكننى كنت لا أزال ألبس الزرد، فقلت له: «هذه هى بطاقتى» وأشرت إلى الزرد.

فمد يده فى صفاقة وربت بها على ظهرى فى حنان مصطنع وهو فى الواقع يدفعنى نحو السيارة بكل غلظة كأنه يدفع لصا.

فتوقفت محتجا: «من فضلك.. معى بقرتى ولابد من تأمينها قبل الذهاب معك»

نظروا جميعا نحوى فى استغراب شديد ثم نظروا حواليهم قائلين: «عن أى بقرة تتكلم يا .. ثور»

صحت قائلا: ها هى، وأخذت أهز المقود فى يدى فإذا بيدى فارغة تماما وليس ثمة من بقرة على الإطلاق، فأخذت أستجمع

ريقى وشجاعتى ناظرا فى كل اتجاه فلا أجد لها أثرا، ولم يكن أمامى مفر من الركوب معهم فى الصندوق العلوى الكبير مخفورا ببنادق يتدلى من ورائها أشباه رجال، ولم تكن البنادق لتخيفنى بالطبع وأنا لازلت ألبس الزرد، لكننى كنت لا أزال أشعر بالوحدة والعزلة الراعبة.

وكانت السيارة تندفع بسرعة جنونية مخترقة صفوف السيارات متسربة من بينها فى حركة حلزونية ماهرة والريح تقلبنى بين البنادق التى انحنت هاماتها من فرط الشعور بالخواء. ثم رأيتنى معلقا فى الريح واقفا ممدود الذراعين ورأسى مائلة على كتفى فى استكانة وصبر عريق محزون، ثم تدفعنى الريح وتدفعنى إلى الوراء ليصطدم ظهرى بناطحة سحابة فوق شاطئ النهر وإذا بى ملتصقا تماما على الجدار، ونظرت فى الأرض السحيقة فرأيتها حفرا حفرا وبركا بركا وخنادق خنادق وأكواما من النفايات يجلس فوقها جمع غفير جدا منكس الرءوس فى خشوع وثمة من يجلس بينهم متكلما فيهم وهم يصعدون من حناجرهم هديرا يصعد نحو قدمى المعلقتين كريح سامة باردة، ولحظتها شعرت بالغثيان فرفعت رأسى قليلا لأرى فى مواجهتى ناطحات سحاب أخرى جدرانها من الزجاج والألومونيوم، تمتلئ غرفها وشرفاتها بنساء عاريات تماما يمددن الموائد التى تحلقتها كروش ذات وجوه غليظة يبدو عليها الطابع الحيوانى، وأياد أشد غلظة ملوثة بالشحوم والأحبار والدم الجاف.

ورأيت الأطباق والصوانى حافلة بقطع من الشواء السمين أدركت أنه من لحم بقرتى بدليل أننى أحسست بأسنانهم تغوص فى لحمى

نـا، فتذكرت حلم أمى وأخذت أزأر صائحا وجسدى كله يهتز من غضب عارم مفاجئ، وإذا بذراعى منفصلان عن الجدار وكذا ظهرى، وإذا بى أستشعر الأرض تحت قدمى، ففرحت جدا وحاولت التعرف على نفسى، فبدا لى أن اسمى ربما كان عبد الصمد بن حميدة وحاولت أن أعرف منذ متى وقفت هاهنا فبدا لى أنه ربما كان من سنوات بعيدة جدا، وحاولت أن أعرف لماذا أنا واقف ها هنا فبدا لى أننى أنتظر شيئا ربما كان الأتوبيس الذى بدا أنه ربما لن يجىء، والذى إن جاء فيقلنى إلى حيث لا يرحب بى أحد ولا يريدنى أحد. لكننى مع ذلك امتلأت تحفزا رغم كل العناء، وشرعت أخطو من جديد فى كل اتجاه صادفنى، ولم أكن أعرف إلى أين أتجه أو ماذا أفعل، ولكننى كنت مصرا، وموقنا بأننى لابد أن أسترد بقرتى مهما كانت الأحوال.

سرادق الألم

الصوات بجميع ألوانه ودرجاته أمر مألوف جدا فى مساكننا، بل إنه واقع يومى لا ينقطع ليل نهار مثلما لا ينقطع الليل أو النهار. ولربما تزول الدهشة إذا عرف أن مساكننا هذه هى مقابر المجاورين، تلك المدينة الواسعة الكامنة وسط جبل المقطم فى السفح الأيمن لطريق صلاح سالم حيث تطل ـ شامخة لاتزال ـ بقايا سور القاهرة القديمة والقلعة فى حجرها، وحيث تتلألأ الأضواء فى ميدان المشهد الحسينى العظيم بمآذنه الشاهقة. أحواش أحواش تفصل بينها شوارع ومنعطفات وتتوسطها ميادين وزوايا صلاة وقباب أضرحة. جدران تتحلى بالخشب المشغول الكالح والأبواب الحديدية التى لم تتمكن من حراسة شىء. الشواهد الحجرية كغابة من الرءوس تضاعفها ظلالها الملقاة على بعضها وعلى الأرض فى ضوء القمر. الطرب المبنية بالطوب تتجاور كأفيال خرافية محنطة..

وكان صوت الفرح يلعلع فى الميكروفونات العالية وينداح فى الأفق المسدود بأضلاع الجبل ومسجد قايتباى، ويتضاعف حين يصطدم بالحجرات المفتوحة على الأحواش. وكنا نتتبع خطوات صديقنا «بخيت» الطربى الذى هو فى الأصل ـ كما ينطقها بلباقة ـ «موتوريست»، أى أنه خبير بميكانيكا السيارات وله شهرة فائقة وصيت ذائع لولا أنه سافر إلى بلاد العرب فمكث سنوات عاد بعدها بفلوس طائلة ولكن بلا سمعة على الإطلاق تعينه على طلب الأجور المجزية، فكان أن أراح نفسه واشتغل بمهنة أبيه طربيا، كان محترما ونشيطا وأمينا، تستطيع أن تقصده فى ميت مفاجئ لديك وأنت بلا مدفن، فبكل شهامة يجهز مدفنا مبنيا ويستقبل الجنازة كأنه ابن الفقيد، ولا يسأل عن المكافأة أبدا، بل يتطوع بتقديم الشاى والسجائر فضلا عن الكراسى للمرافقين، ويعين لك خفيرا.

معتوه من يتصور أن حقه يمكن أن يضيع، هكذا يقول «بخيت» عن أمثاله من فرسان الشجاعة، ثم يستطرد معلقا أن العمل الشهم هو فى حد ذاته أجر لا ينفد أبدا، واللحم المدفون تحت هذه الأحواش هو حلقة الوصل بين صديقنا بخيت وبين ذويهم من الأحياء..

كل الطرق قد توصل إلى روما حقا إلا الطرق الفاصلة بين المقابر، لكن صديقنا بخيت كان كالإبرة ونحن الخيط ملضوم فى ثقبها، وهو يلف بنا حول مقابر ليستدير بحذاء ضريح ثم يعرج على حوش، فإن سبقتنا الإبرة وتعثرنا بدا صديقنا «بخيت» لبعضنا كأنه

دخل بقعة لا مسالك لها مطلقا. صوت المغنية الرخيم يرسل موالا بهيجا مجلجلا ويبدو كأنه ينبت من بطن الأرض من بين أقدامنا ومن حولنا. كان صوتها شجيا كأنه البكاء الفطرى الجميل.

داخلتنا البهجة حين تذكرنا أن صاحب الفرح الذى جئنا نلبى دعوته - وهو صهر صديقنا بخيت - قد اكترى فرقة موسيقية فوق مستوى العوالم بدرجات عالية، ويكفى أن معظمها من الأسماء اللامعة فى شوارع الفن ودروبه، فصهر صديقنا له فضلة خيرك ثلاثة مهندسين من صلبه يعملون فى بلاد العرب وقد جاءوا لزفاف شقيقتهم، «حسنية» التى تزف اليوم لابن عمها «بيومى» الطربى وصاحب عربات لنقل البضائع لا تنى على طرقات البلاد سائرة..

فجأة صرنا إلى شارع عمومى تصطف على جانبيه الأحواش المبنية على طراز جهم مهيب، كل حوش بيت متعدد الحجرات فى كل حجرة مدفن أو أكثر، لو توقفت أمام أحد الأبواب وقرأت بعض اللافتات الرخام لداخلتك قشعريرة غامضة مصدرها اكتشاف أنه فى هذه الحجرات تستريح جثث رجال ممن قرأت أسماءهم فى كتب المطالعة أو التاريخ أو على لافتات زرقاء فى مداخل شوارع مدن الأحياء. فى كل حوش من هذه الأحواش أسر بكاملها وأجيال عديدة مدفونة، وفى كل منها أسرة من الأحياء تسكنها كانت فى الأصل خفيرا طرح على مضى الزمن أفرعا من الأبناء والأحفاد اكتسبوا حق البقاء كأمر واقع لا مماراة فيه، ثمة أسر أخرى من أصحاب الأحواش أنفسهم ضاقت بهم مدن الأحياء وارتفعت أسعار

الخلوات فيها فجاءوا إلى حيث لا ثمن للخلو فالرجل مخلية والحمد لله، وأقاموا من أحواشهم مدافن ومساكن فى نفس الوقت.. وخشبة النعش تقف بجوار العربة البيجو فى حارة تحت شباك الحوش، والتليفزيون الملون يرسل تصاوير الفيلم على شواهد المقابر المجاورة فى خلاء ليلة صيفية قمراء..

ثم إن الفرح بدأ يهل علينا من شارع جانبى عريض. أقواس نصر مصنوعة من اللمبات الكهربائية فى ضفيرة يتشكل فى وسطها ما يشبه التاج الملكى، اللمبات الملونة يتشكل منها اسم العريس وسط اسم الجلالة والنبى العربى. ما أن حودنا إلى الشارع الجانبى تحفنا الأضواء حتى صرنا فى سرادق ممتد وعريض يغص بالمدعوين فى دوائر تتناقل التحية والمساء الهناء فى صهللة وسبهللة صاخبين لذيذين، والمسرح فى نهاية السرادق حافل بالأطايب.. أربع إناث كالفهود فى ريع ثيابهن يبعثن العطر والهياج فى كل الأنحاء، راقصتان ومغنيتان طبال وضارب رق وعواد وعازف أوكورديون وعازف قانون ونایاتى وثلاثة من عازفى الكمان، وخلبوص يجمع النقطة ويردد كالببغاء كل ما ينطق به صاحب «النقطة»..

توقفنا برهة عند مدخل السرادق وقد بدا الجميع لنا وهم يروحون ويجيئون شاحبين كالمصابين بالأنيميا. وكانت الأضواء تنداح شاحبة فى المدى المجاور للسرادق وظلال الشواهد تمتد وتستطيل على الأرض لتلتحق بظلال المحتفلين. رغم جلال الموقف لم يكن ثمة ما يدعو إلى الاستنكار بعد أن التحقت أحاسيس الرهبة

بأحاسيس البهجة وامتزجت وصار من المستحيل تميزها عن بعضها.

الدخان الأزرق يتصاعد فى سحب كثيفة تضفى على البارزين فوق المسرح غلالة من السحر، والطبلة العظيمة لا تنى تعبر عن جنون مخترعها وعبقرية إحساسه يا حلاوتها والرق يزوقها بدندشته، وآه من ونس القانون ومن صعلكة العود فى شرايين الجسد، عينى على زفرة الناى، انتعش تحت اللحاف أيها القلب الموجود بالعشق الأصيل فها هو ذا الأوكورديون يسحبك إلى الإجهاش بالحياة، ثم اصهل ياكمان وانقلنى إلى المدى البعيد أسوح فى ربوع الحب والشجن والألم.. حتى لو كنتم من عازفى الدرجة الثالثة أو العاشرة فإن عزفكم فى هذه اللحظة لأجمل عزف، حتى لو كان هذا النشاط الحيوى المفاجئ لإمتاع المحتفلين استدرارا لبذل «النقوط» فهو جميل بل وساحر..

وكنا قد اكتشفنا أننا صرنا جلوسا فى جمع قريب من خشبة المسرح ورددت أسماؤنا فردا فردا عشرات المرات فى الميكروفون، مئات التحايا أرسلت إلينا وناب عنا غيرنا فى ردها أضعاف أضعاف. صحوة «نقوط» مفاجئة صار من الواضح أن الجمع يرغب فى المغنية نجمة الحقل ويستفزها ويبعث على شرفها العشرات من هيف القدود.

تكفل صديقنا «بخيت» بجرها إلى وصلة غنائية ساخنة، فصعد إلى خشبة المسرح وشبك الورقة أم عشرين فى صدر المغنية ثم

تحزم وطلب الرقص، فأرقصته الفرقة عشرين أو ثلاثين بلدى. كشف عن راقص ماهر يسيل جسده فى تشكيلات فطرية تهتز لها الأعطاف وتتراقص الأعناق فى السرادق، حتى لقد انتصبت المغنية وانجلى صوتها بأغنيات شعبية ذات سحر وعذوبة لا توصف.

وفى قمة الصهللة والوجد المشبوب بالموسيقى والرقص والغناء كان ثمة موجات من الصوات الملتاع تقترب لتطغى شيئا فشيئا على صوت الميكروفون والمحتفلين، ثم إذا بها تقتحم السرادق نفسه: كوكبة من النساء لا بسى الأسود حفاة كسرب من الغربان تقتحم مدخل السرادق لتعبره بالعرض ندبا وصواتا بدب الأكف فوق بعضها؟ ثم يغيب سربهم فى شارع جانبى مواجه حيث يتضح لمن يقوم ويتمعن وجود كراسى مرصوصة. فى الحال كان الطريية المدعوون فى الفرح قد تذكروا أن ثمة ميتا لابد أن يدفن فى هذه الليلة حيث جىء به من سفر بعيد ولا يمكن الانتظار..

خيمت على الفرح لحظة صمت قصيرة، أحسسنا خلالها أن الأحاسيس قد انفصلت عن بعضها لتصبح الرهبة فى جانب والبهجة فى جانب. ثم إذا بالفجوة تتسع بينهما اتساعا مخيفا، لحظتها ظهر موكب الرجال يحملون النعش ليمر من أمام سرادق الفرح فى بطء وتثاقل.. وكانت الأوتار لا تزال عاجزة عن لم رنينها من الأفق.

صاح صديقنا «بخيت» فى جدية وبنفس الشهامة: «سلام للميت ياجدع». فتردد العازفون برهة لكنه صاح فيهم: «بنقول سلام للميت يا جدع». فاندفعت الآلات كلها تعزف السلام للميت.

رغم أنه نفس السلام الذى تعزفه لأى «نقطة» وبنفس الآلات ونفس الأصابع، إلا أن شحنة من الشجن الحزين الجليل كانت تنبعث من النغم، ثم إن الموسيقى استأنفت فى الحال تقاسيمها فارشة للموال أرضا من البنفسج. ثم انساب صوت المغنية بالموال، وكان يبدو، أن صوتها ينبت من الأرض تحت أقدامنا ومن حولنا: «طبباك يا جرح ماتوا وأنت لسه حى. يا جرح عيب واختشى صفصف عليك الحى».. فكان أجيال من طبقات الأرض بمن عليها ومافى باطنها تزعق هذه الآهة الحراقة وتطلق نفس الأنة الموجوعة وتذرف نفس الدمعة فى سرادق الفرح.

الاحتراق

لم أكن قد رأيت نفسى وأنا أقطعه، لكننى فجأة وجدته فى يدى. كذلك لم أر دما يسيل منه ولا منى. غير أننى رغم شعور كامن فى أعماقى بفداحة الأمر - لم يكن يبدو على أى استياء أو ذعر. أذكر أننى ربما أكون قد اندهشت، ولعلنى ابتسمت، فقد كان ظريفا أن يقطع الإنسان هذا الشىء الذى هو - فيما يقولون - متعة الحياة الدنيا ثم يبقيه فى يديه وقتا. على أننى كنت أسلم نفسى للدهش البارد اللذيذ، وفى الأعماق البعيدة نبوءة بإحساس لابد وأنه سيكون لذيذا غاية اللذة باعثا على النشوة أيضا.

لبرهة سريعة تساءلت إن كان من الممكن - طبيا - إعادة لحمه من جديد. ولكن شيئا معتما بدأ يصعد من الأرض البعيدة وسخنت ماء الحمام فجأة ثم سخنت ثم تحولت إلى ماء مغلى، وحينئذ رميته فى عنق المرحاض وشددت عليه (السيفون). ثم رأيتنى فجأة فى قلب الشارع الكبير، وكنت لا أزال عاريا والمطر ينهمر بشدة.

التقيت بكثيرين من أصدقائى ومعارفى وزملاء طفولتى فى كل البلاد التى عشت فيها ولم أعرف لماذا هم الآن فى هذا الشارع .. لكن كل واحد منهم كان ماضيا إلى شىء ما ومع ذلك يرانى وينظر إلىَّ ويبتسم. كنت أركض عاريا وأقبل على كل منهم مبتسما وأدعوه مغنيا: (شتا يا شتا.. زمر يا سعيد).

لكن أحدا لم يتوقف ولم تفارقه ضحكته الودودة. كنت لا أعرف إلى أين أنا ذاهب بالضبط، كذلك لم أكن فرحا بهذا الركض ولا بالغناء الذى رحت أصيح به فى صوت عال غير أننى كنت أشيح عن كل من لم يتوقف، وأنسلخ عنه. كانوا يحمون وجوههم من المطر بالأيدى والجرائد وجدران المنازل، ويرفعون أذيال ثيابهم ويتعثرون ثم اشتد هطول المطر فتوقفوا جميعا وانزووا فيما أخذت أقطع الشارع ذهابا وعودة. وقد راحوا جميعا ينظرون إلىَّ ولكن بشىء من الحسد. ولحظتها كنت أحاول منع نفسى من البكاء الجارف. لكننى رحت أضحك بصوت عال، حتى لا أعترف بأن مياه المطر هى الأخرى كانت تغلى. وكنت أعجب: كيف لم يحترق جسدى؟!

العبور من البرزخ الهوائى

القرية التى كنت راحلا عنها كانت تبدو كأنها قريتى وكانت تبدو كأنها لم تكن قريتى، كذلك كانت المدينة المتاخمة لها.. وكان آخر مشهد بقى فى ذاكرتى هو مشهد أبى يوبخنى بكلمات جارحة لم تترك عضوا فى جسدى إلا واتهمته بشىء بذىء، وكان ذلك يتم بصوت عال وعلى ملأ من الجيران والزملاء والسابلة. وكنت لحظتها قد بدأت أطأ أرض المدينة مع وفود الندى. وكنت قد استنفدت كل عرقى لحظة التوبيخ فصرت أشرب عرق الليل المنسحب بعد رحلة أجهدته وأورثته من صنوف العهر والعناء ما شيبه بفجر رغم الكآبة ساطع وقوى ونافذ كالقدر كالحكم المعدل .

أضواء المدينة التى كانت مبهرة منذ ساعات قليلة بدت أمام وفود الفجر الفيروزى كعين عمشاء تخبو ذبالتها شيئا فشيئا، أبنيتها الميتة المسلحة وعمائرها ذات الشرفات والقباب والمآذن والمداخن تبدو كأنها من فرط بروزاتها وتكوراتها البنائية كأنها تكتظ بالرقاد

اللذيذ والمتعة المفرحة، وتبدو كأنها تتنفس بعمق كأنها البطون تعلو وتهبط، والطرقات المرصوفة تهل وتتفرع وتتنابذ وتتماسك لتزور عن بعضها من جديد كل فى طريق، وبعض الطرقات حافلة بالأترية وبقايا أدخنة اليوم الفائت.

وكانت تبدو كأننى أعرفها وتبدو كأننى لم أكن قد عرفتها من قبل أبدا، ذلك أننى لم أكن أعرف لى وجهة معينة، وليس ثمة من أحد أعرفه على الإطلاق، ثم إننى وجدت أن لا مفر من التسليم بأننى لست من أهل هذه المدينة وليس لى ثمة من أهل فيها، وكان ذلك يقتضينى أن أمشى مؤدبا غاية الأدب وفى حذر وعلى استحياء أثقل خطواتى أو أرسل البصر .. وكانت الوفود الفيروزية التى لا ينى الفجر يرسلها قد راحت تتعثر فى شوارع المدينة وحواريها ومنحنياتها وتضيع تحت ظلال تندات المحلات وفى أركان الشرفات. وتتلوث بالوحل على بلاطات عريضة متشققة سائبة يتحدر من بينها ماء قذر يحمل عطانة يستعذبها الأنف إكراما لخاطر ما كان وراءها من مواقعات فى مواقع دفء أسرى لذيذ.

لا أدرى كم حارة قطعت وكم حوداية حودت وكم مزلقانا عبرت ومصاصات القصب وبقايا عيدانه تتناثر على الأرض. وعشش وأخصاص تنتمى إلى أركان ومنعطفات وعربات الهريسة والبليلة والسندوتشات تزحف داخل عيون الصبح لتحتويها، وناس تمشى، عمال وأفندية وتلاميذ. وأطفال أنقاء يهرولون فى أيدى آبائهم أو أمهاتهم فى زهو كأنهم ذاهبون لتسلم منصب الرئاسة وإن وصلوا إليه بعد أربعين عاما أو قليل أو كثير.

ثم فوجئت أننى فى خلاء قليل تحوطه المبانى من ثلاث جهات. فخيل إلىَّ أننى أعرف هذه الفتحة الهوائية المرتسمة بين ضفتين من المبانى العالية على شكل صندوق آلة الكمنجة. وكنت أعرف أننى كلما دخلت فى فراغ هذا الصندوق أكون قد اقتربت من حارة على اليمين فى الضفة اليمنى، على ناصيتها مطعم فول وجزمجى وفى المقابلة على الناصية الأخرى حلاق، فإن دخلت الحارة تعين علىَّ أن أهز رأسى للحلاق الجالس دوما أمام دكانه، وأرمى يدى بالتحية لبائع الفول مع ابتسامة أتملقه بها مقدما حتى لا يصدنى بغلظة حينما يجىء الوقت وأطلب منه فولا وطعمية على الحساب ريثما يجيئنى المصروف من البلد، ثم أتجاوز الجزمجى إلا إذا كان رافعا رأسه..

ثم أمشى فى هذه الحارة متوغلا ما يربو على نصف كيلو متر بين صفين متقابلين من البيوت العتيقة لها شبابيك غائصة فى الأرض وشرفات كالدمامل البارزة فى الحوائط الكالحة المخللة فى مياه الطرشى ومياه الحموم والغسيل والرطوبة. حتى أصل إلى بيت أم عزت، وهو بيت من دورين له باب على الشارع مغلق ليل نهار، وعلىَّ أن أقف تحت الشباك وأنادى بصوت ريفى أحاول جاهدا أن أرققه ليبدو كصوت أبناء المدن:

«يا .. عزت .. ياسىْ عزت».

فيرد صوت أم عزت من وراء الباب مباشرة حيث إنها تفرش وتنام فى الفسحة لسبب لا ندريه، ومع أنها تكون قد عرفتنى من صوتى إلا أنها تقول بجدية شديدة وذعر عاهر مصطنع:

«مين اللى بينادى»

فأقول «أنا فلان».

فيصطك ترباس الباب من الداخل ثم تنفتح الضلفة قليلا لأمرق منها إلى الداخل، حيث الحجرة المواجهة لبئر السلم التى نؤجرها أنا واثنان من بلدياتى من زملائى فى المدرسة، أندفع داخلا متجنبا النظر إليها خوفا من أن تكون فى نصف ثيابها أو لعله خوفى من بطشها، إذا أنا تطاولت بنظرتى، ولى بعد ذلك أن أعريها من كل ثيابها فى حجرتى وحدى وربما مع زملائى ولكن دون أن تدرى هى، ونتناقل حضنها فى الصقيع كل ليلة فيما هى لا تزال تكح وتتوجع فى الفسحة، باستثناء ليال قليلة تنام فيها فى الحجرة العلوية المواجهة للباب حين يجىء زوجها عسكرى البوليس ليقضى معها إجازة.

وكنا نرهب جانبها ونهتز من شخطتها حين تضع يدها فى خصرها الرفيع الرشيق فتزداد عجيزتها بروزا وعرضا، وتؤنبنا كأننا خدم فى معيتها حيث يتراقص حاجبها فى دربة كبيرة ، وحيث نرى التهتك والعهر فى كل عضلة وصوت وحركة.

وكان ذلك يطيب لنا فى الواقع إذ هو أباح لنا رؤية أثداء بارزة تهتز طليقة كفردتى الحمام من فوق عش الصدر، وخصر مستطيل رفيع يزداد رفعا كلما هبط إلى العجيزة، ليبرز تحت الصدر بمسافة طويلة مشروع عجيزة أخرى كأنها مجرد ظل لغطاء حلة مقلوب تبرز منه دائرة صغيرة يمسك منها.

لكنها فى النهاية انتهكت حرمة أمهاتنا تماما، وصرنا نرتعد كلما واجهنا أمهاتنا ونرتبك كأننا أخطأنا فى حقهن إلى درجة الكفر والعياذ بالله. وكل منا يلاحظ هذه الظاهرة على الآخر كأنه براء منها وهو فى الواقع غائص فيها. وكنا نمتثل لأوامرها عن طيب خاطر، ويشكو بعضنا البعض إليها لتنزل به العقاب الذى ربما امتد إلى حرمانه من زوادته طوال المدة والاستيلاء على أى قرش يظهر بين يديه. وكان الواحد منا يهدد فى المساء تحت الفراش بأنه سوف ينتقم منها شر انتقام ولكن شبح زوجها عسكرى البوليس يرعبه، وشبح ابنها عزت ـ ذلك الذى لم نره أبدا ـ يرعبه أكثر.

وكنت قد غصت فى صندوق الكمان الهوائى حتى دخلت المنبعج النهائى وكان علىّ إما أن أحود بعد خطوات إلى الحارة التى صار من المؤكد أنها هى التى كنت أسكن فيها فى هذه المدينة زمن التعليم، أو أغوص أكثر فى قعر صندوق الكمان الهوائى حتى أصير داخل البروز النهائى فيه لأصير بعده فى خلاء لا نهائى تحفه الأراضى التى يحمل السحاب كثافة ظللها فى السماء الرمادية المخيفة تنطبق فى الأفق فى آخر المدى على المجهول الذى تبدأ منه آماد جديدة لا نهائية أيضا.

كان الحنين يسمرنى فى مكانى وكأنما الإشعاع الذى يصدر عن جسدى قد تعرف على نفسه تحت ركام إشعاعات الآخرين والأزمنة ثم سرعان ما اتصل وتلاحم، وإلا فما سر هذه القوة الجاذبة التى تشدنى الآن بعد انقطاع موغل فى القدم إلى أن أسير نفس

الخطوات فى نفس الحارة لأذهب إلى نفس البيت وأطرقه نفس الطرقة وأتلقى رد أم عزت أو أى أم غيرها.

ثم إن قلبى ارتعد قليلا، إذ مر اثنان من الصعايدة المعممين يمشون فى مهابة ويتكلمون فى هدير غير مفهوم، خيل إلىَّ أنهم سيتعرفون علىَّ ولكنهما تجاوزانى بعد نظرة حافلة بالسلام عليكم. وقد تيقنت أن أحدهما هو صاحب المبنى الذى كانت تؤجره مدرستنا اسمه المعلم عباس المراكبى والآخر هو صاحب محل عصير، كنت أريد أن أسلم على المعلم عباس وأن أهرب من صاحب محل العصير، فالأول كان قد حاش عنى أولاد المدينة حينما تحوطونى مرة بلا سبب وأشبعونى ضربا وزغدا وتهزيئا والثانى استلفت منه بريزة منذ عشرين عاما وزعمت له أننى سأردها يوم السبت حين عودتى من البلد ولكنه لم يرنى بعدها أبدا..

تذكرت أننى ربما أكون مدينا لصاحب المطعم هو الآخر بأكلتين أو ثلاث لا أذكر، ثم إننى توجست من طول الوقوف، فمضيت متجاوزا الحارة على زعم خفى بأننى لم أبتعد عنها كثيرا لأعود إليها، فإذا بى أرانى ماشيا فى الخلاء المتاخم للمدرسة مرتديا بنطلونى وقميصى وبين رهط من التلاميذ نسعى إلى مدخل المدرسة نوحوح من البرد، وكلهم ينظرون إلىَّ، حتى الذين يمشون خطوات دون انتباه لى يعودون فيلوون أعناقهم ناظرين إلىَّ من جديد، فأعرف أنهم يستنكرون بنطلونى المرقع، ويتأففون من حذائى المفتوح الفم عن لحم عار بلا شراب. وكنت أعرف هذا

وأركز النظر فى عيونهم متحديا فمنهم من ينكسف ويمشى خجلا ومنهم من يصطنع الإشفاق ليمعن فى الكيد، ثم رأيتنى فى الفصل بين خمسة صفوف من التلاميذ والمدرس واقف ينصت فى إمعان وأنا أقرأ فى كتاب المطالعة موضوعا عن دار الكتب المصرية التى أنشأها على مبارك باشا ليحفظ فيها تراث العرب، وكان المدرس معجبا بقراءتى وأنا منطلق فى القراءة رغم أن شياطينا من الزملاء المجاورين يمدون أيديهم خلسة ويتحسسون بها مواضع الرقع فى بنطلونى، فيرتعش جسدى كله وينتفض، وما أن جلست حتى جمعت كل قوتى الغاضبة فى لكمة شيعتها خلسة للشيطان الذى أعرفه فإذا به ينتفض مذعورا صارخا وإذا بالفصل كله يفزع منبها والمدرس يقبل نحوى رافعا حاجبيه ينظر إلىَّ دهشا كأنه ينظر إلى وحش متنكر، سألنى فحكيت له السبب.

وقال الولد الذى لكمته بقسوة إنه لم يكن صاحب اليد التى تحسست، إنما هى يد فلان، فابتسم المدرس وأمرنى أن أعتذر لجارى فاعتذرت، وميل المدرس رأسه نحوى هامسا:

«وانت كمان ابقى غير البنطلون ده»

وكنت أرتدى نفس البنطلون ونفس الحذاء حينما رأيتنى أتجاوز بناء المدرسة وأنسلخ من أرض الحديقة الملحقة بها وأعرف أننى قد خرجت من صندوق الكمان الهوائى وصرت أمشى على مدق رفيع بين مزارع وقنوات وسواق، وأسراب من طيور أبى قردان صديقة الفلاح، لابد أنها هى الأخرى تظننى حشرة من حشرات الأرض

يجب ابتلاعها لولا حجمى، إذ راحت تصافح الأرض أسرابا لتعود فتنطلق منها أفرادا وجماعات تصنع فى الفضاء تشكيلات أين منها التشكيلات العسكرية، وكنت أتأبط شيئا سرعان ما تبينت أنه صرة فيها ثيابى الداخلية والخارجية أى كل ما أملك من ثياب. وسرعان ما تبينت أننى ذاهب لكى أغسلها حيث أفعل ذلك يوم كل جمعة فى الخفاء.

ظللت أمشى وأمشى وأعبر قنوات حتى تعبت. ولما نظرت خلفى ورأيت المدينة قد ابتعدت وصندوق الكمان الهوائى قد انعجن فى كثافة من خلال المبانى. أسرحت بعض الشىء واعتبرتنى فى مأمن. وكان أمامى ساقية كبيرة فوق ربوة عالية، تستظل بثلاث فارهات من شجر التوت والجميز والجزورين. وكانت الشمس قد ألقت بقرصها كاملا فوق سطح شريط بارز مصقول عرفت أنه ترعة كبيرة أغلب الظن أنها ترعة المحمودية، كالعادة وضعت صرة ثيابى فى حوض الساقية الإسمنتى المستطيل، ثم خلعت ما علىَّ من ثياب، ثم فردتها كلها وشرعت أغسلها. اكتشفت كالعادة أن ليس معى صابونة ولكن ذلك لم يثننى، صرت أغمس الثوب فى بئر الساقية وأخرجه ثم أضعه على رأس الحوض وأروح أدعكه بين راحتى كما تفعل السيدات، وأتذكر منظر أمى وهى تلم الثوب على الأرض فى كومة هرمية وتضغط فوقه بإيقاع موسيقى، ثم تفرده وتغمسه فى الماء هكذا، لتفرك هكذا وتكوم وتضغط هكذا والثوب يفرز موجات من الوسخ ذى رائحة عطنة. المهمة ثقيلة مع ذلك لا يكرهنى فيها سوى غسل السراويل مع أنها سراويلى وهذه البقعة المتجلدة فى

صدر السراويل ذات لون لا لون له هى إفرازاتى مع ذلك أتقزز من غسلها ومع ذلك أغسلها.

وكنت ماضيا فى غسل أحد السراويل مكشرا وجهى أضغط بأسنانى على لسانى مثلما أضغط على السراويل وأحكه فى أرض الحوض حين زحفت على الثوب مجموعة ظلال كثيفة تتمثل فى رءوس سوداء متجاورة صارت تدوس فوق الثوب وتستطيل وتستطيل، أحسست أنها لناس ربما كانوا من أصحاب هذه الأرض أو هذه الساقية أو ليسوا أصحاب شىء، فتعمدت عدم الالتفات وطفقت أواصل الغسل واثقا أنهم لابد سيعتبرون ويختشون ويمشون. لكن صوتا ثقب أذنى عرفت أن صاحبه هو ذلك الولد الشيطان الذى دأب على تهزيئى بسبب رقعة فى بنطلونى وكان يخيل إلىَّ أن الضحكات الساخرة المستهجنة تخرج من كل مكان وتبقلل فى مياه البئر ولكننى مع ذلك لم أنتبه.

وظللت أواصل الغسل وهم يواصلون الضحك الساخر والتجوال حول الساقية. وكنت كلما انتهيت من غسل قطعة نشرتها على شعبة الساقية وعلى الطارة الحديدية، فلما أنهيت غسل الثياب كلها نهضت مارا بالأولاد الشياطين ووقفت ونظرتى فى نظرتهم فلم يبد على أننى رأيت أحدا، ثم قفزت الطريق قفزة واحدة إلى الترعة، التى بدت عريضة أكثر مما توقعت، عميقة أكثر مما ظننت، ابن ريف أنا مدرب على خوض الترع كما هو مدرب على الخوف منها.

نزلت متحسسا أرض الشاطئ وانحداراته إلى الداخل، ثم غطست غطسة سريعة وخرجت على مبعدة أمتار قليلة. ثم أخذت

أسـبح وأسـبح بـدربـة هـائـلـة نـشـوانـة مع أنـنـى لا أذكـر أنـى تـعـلـمت السباحة فـى حياتى وإن خضت الترع والمصارف. وكأن يزيدنى نشوة أن الشمس صارت عمودية فوق ثيابى.

الكهف

رأيتنى جالسا كالعادة فى حجرة مكتبى منشغلا فى أمر لا أدرى ما هو على وجه التحديد، لكننى كنت أقلب أوراقا مطبوعة أغلب الظن أنها بعض المجلات الأسبوعية أو الجرائد الملونة، وكان ثمة شعور بأن التفاهة والقرف يحاصراننى حصارا لا فكاك منه.

وكان باب الحجرة مفتوحا على غير العادة والليل ـ كما كان واضحا ـ ينذر بفجر كئيب كفجر كل الأيام السالفة. وفجأة رأيتها مقبلة من إحدى الغرف الداخلية مجتازة الصالة فى اتجاه باب الشقة. كانت ترتدى جلبابا منزليا يشبه جلباب الرجال إلى حد كبير. لكنه ينسدل فوق مرتفعات جسدها بسخاء فتبدو أجمل مما عرفت، ويلتصق بمنخفضاته فيبدو كجاسوس خبيث.

لم أكن أعرف لماذا هى متجهة إلى باب الشقة فى مثل هذه اللحظة المتأخرة من الليل، ولم أكن سمعت طرقا على الباب، لكنها ـ

كالعادة - تممت على ترباس الباب ودفعته ثانية بقوة حتى تأكدت من اصطكاك لسان المزلاج بالثقب الذى يبيت فيه وأطفأت المصباح المعلق على واجهة الباب من الخارج.. ثم استدارت عائدة نحو حجرة مكتبى فتهيأت لاستقبالها بابتسامة أحاول جاهدا أن تبدو طبيعية حتى لا أتهم بأننى أفتعل الابتسام كلما انفردت بى لأخفى عدم سرورى، باقتحامها عزلتى. وكانت متهندمة يفوح منها طيب وكانت أيضا تبتسم، فكاد قلبى ينخلع، إذ تأكدت أنها لابد ستحدثنى عن أشياء خطيرة مطلوبة منى تتعلق برهط من كائنات صغيرة تنام فى الحجرة المجاورة لا يهدأ لها ضجيج حتى فى عز نومها.

ولم أكن قد قررت بعد ماذا سأقول محاولا قدر الإمكان تجنب الردود التقليدية التى أصبحت أخشى ترديدها كما أخشى الاقتراب من لغم. وكان جسدها كله قد صار فى مواجهتى تماما مقبلا نحوى، ولم يكن ثمة شك فى أنها هى بلحمها ودمها، لكنها كلما اقتربت اختفى وجهها فى ظلمة الصالة الخفيفة وجعل يتصاعد من جسدها تيار كهربى غير مرئى بعث الخوف والفزع فى جسدى كله. فلما ازداد اقترابها ازداد معه اختفاء نصفها الأعلى كله صاعدا نحو السقف فى حين لم تستطع حنية زاوية الباب أن توقف زحفها نحوى فى هدوء رقيق ونعومة.

ارتفعت فروة رأسى، غصت فى كرسى المكتب وشرعت من فزع ومن رعب أطلق صراخا من الحلق يشبه الزئير، زئير من يستنجد بقوى كونية خرافية تسعفه. لحظتها شعرت بجسدى كله يهتز ويد ناعمة تربت على كتفى وصوت يردد فيما يشبه المواء فى أذنى:

«مالك يا فلان.. أنا نايمة جنبك أهه فيه إيه؟».

رفعت رأسى عن الوسادة قليلا والتقطت أنفاسى الضائعة بصعوبة، ثم تمطعت واعتدلت فى نومتى محاولا الغطاس فى بحر النوم، لكن أنفاسى لا تريد أن تنتظم. بربشت بعينى فى الظلام فلم أر شيئا لكننى أحسستها، فتذكرت أنها كانت قد جاءت منذ وقت ونامت جوارى. فظلت جفونى متباعدة كأنما اعتراها الخوف من الانغلاق، وبدا أن النوم الثقيل عدو سخيف يحاول استدراجى إلى المجهول.

وكانت يدها قد راحت تتحسس جسدى كأنها ترقينى بلا رقيا. وكنت ـ على سبيل رد المجاملة ـ قد تركت يدى هى الأخرى تفعل نفس الصنيع. ثم وجدتنى أستجيب شيئا فشيئا.. فأدخل كهفها المسحور.

فنتازيا الأطفال

لأمر ما دخل التليفزيون دارنا دون كل الدور فى العزبة التى أسكن بها، ذلك أن ابنى الأكبر، وهو مدرس معار إلى بلد عربى، كافأنا بهذا الجهاز لنتفرج عليه ريثما يعود من رحلته ويتزوج ويستعيده لنفسه.

والعزبة التى أسكن بها ليست عزبة بالمعنى المفهوم للعزبة، إنما هى منشأة صغيرة كانت فى الأصل مسكنا لعمال وخفراء إحدى ماكينات المياه، قبل أن يفد علينا ألوان من الناس لأسباب مختلفة ويتخذون منها موطنا، فبينها وبين العاصمة بضعة أميال صغيرة كنا نقطعها سيرا على الأقدام كل يوم لنقضى سهرتنا أو نشترى حوائجنا، إلا أن العربات المنتشرة على السكك، وزحف العمارات القادم من العاصمة، والضجيج الهائل الذى أصبح يعم المنطقة، كل ذلك جعلنا نفكر عشرات المرات قبل «السفر» إلى العاصمة إذا لم يكن ثمة عربة توصلنا.

فجأة صارت «المندرة» فى دارنا أشبه بالمقهى. لم يكن ذلك يزعجنا، بل كنا أحيانا نتطوع بتقديم كوب من الشاى أو أكثر لبعض كبار القوم الذين دأبوا على زيارتنا للتفرج على فيلم السهرة أو تمثيلية الثامنة والربع. على أن أكثر ما كان يسعدنا جميعا هو منظر الأطفال الملتفين حول الجهاز ينظرون فى انبهار وصمت عميقين، خاصة حين الفرجة على برنامج (الأطفال).

كنت أرقبهم وطفلى الصغير بينهم يتبادلون النظر والابتسام فى غبطة وسرور كلما جاء مشهد الحديقة على الشاشة، إذ تنفتح الشاشة فجأة على حديقة جميلة حافلة بالأشجار والأراجيح وآلات اللعب، وكوكبة من الأطفال الملظلظين تتقافز ضاحكة لاعبة وتتبادل الورود والزهور.

كانوا يحسبون لموعد البرنامج بكل دقة ويطرقون علينا الباب دون حرج. وفى يوم تعطل الجهاز وصار حتما أن أقوم بإصلاحه قبل حلول موعد برنامج الأطفال، أى لابد من الذهاب إلى العاصمة. وهنا تعلق طفلى بثيابى وارتفع صراخه، فاصطحبته معى إلى العاصمة. سلمنا الجهاز لمحل التصليح وانطلقنا إلى إحدى الضواحى نزور أحد أقاربنا الذى أملنا فى عودته معنا حتى يختشى منه صاحب المحل فلا يغشنا.

فإذا بنا فى سفر جديد، وإذا بنا نهبط ونسير فى شوارع لامعة وهادئة تحف بها الأشجار من كل ناحية فتختفى فى ظلالها البيوت. وكان طفلى ممسكا بثيابى يتلكأ فى السير حينما لمحنا على البعد

القريب حديقة جميلة حول سراية أجمل، حافلة بالأشجار والأراجيح وآلات اللعب، وكوكبة من الأطفال الملظلظين تتقافز ضاحكة لاعبة وتتبادل الورود والزهور..

حينئذ شدنى طفلى من ثوبى صائحا بكل انبهار وغبطة..

- «الأطفال» أهم يا بابا.

تباريح الريح

كنت أنام فى حجرة جدرانها من الصفيح وسقفها من البوص والحصير هى حجرتى التى أسكنها فوق سطح بيت «أم عواطف» الكائن فى صدر حارة ضيقة من حوارى حى محرم بك بالإسكندرية.. متمددا كنت على شريحة حشية فوق حصير متآكل هى مرتبة الكنبة البلدى التى استغنت عنها أمى وتركت الكنبة عارية فى مندرتنا فى البلد قائلة إن عرى الكنبة أفضل من عرى ولدها ثم ضحكت لتدارى فى عينيها شيئا ما. بطانية رثة من بطاطين الجيش منطرحة على جسدى تلففه من أخمص القدمين حتى رموش العينين اشتراها أبى من سوق العصر وجاء بها سعيدا يتعثر فى الطريق من الفرح يفردها يقلبها يتحسسها ويرينى كيف أنها لا تزال محتفظة بوبرتها تفوح منها رائحة جدة صوفها.

فى عينى جمرة حمراء صغيرة كحلمة ثدى متكور فى جسد الظلام هى ذبالة ما تبقى من شريط لمبة الغاز نمرة خمسة بعد أن

احترق فى رحلة الصعود بالضوء بلا غاز يجرى فى عروقه الشرقانة.

تحت رأسى وسادة صفت من كتب دراستى. الحائط أخذ يزداد اقترابا من عينى شيئا فشيئا كأنما قد صار له كرش من الظلام المتورم أو التورم المظلم. حلمة الثدى المتجمرة أخذت فى الاضمحلال انطمست، بدا كأنما اختفاؤها مؤقت.

كنت أتنفس بإعياء، لأنفاسى صوت عال كئيب، مزعج ورتيب .. بدا كأننى جائع لم أتناول طعاما منذ وقت طويل مضى. كنت أعرف أننى لو مددت يدى بجوار رأسى مباشرة فسوف تصطدم بالقفة المملوءة بشقائق الأرغفة الناشفة هى زوادتى التى أجىء بها من بلدتى كل شهر مرتين، نصف كيلة من العيش المخبوز وخمسة وعشرون قرشا مصروف يد، سرعان ما تغتالها المدينة فى لمح البصر والأيام لما تجىء بعد والليالى لا تزال طوالا.

كنت أعرف أننى أستطيع مد يدى فى القفة وسحب شقة عيش ألوكها وورقة الملح المدخر من قراطيس الطعمية المشتراة لا تزال طافحة بزيتها ورائحتها موضوعة بين كتابين تحت رأسى.

أعرف أننى قانع بالمثل الشعبى الذى يزودنى به أبى كلما ودعته ساعة السفر: «إن حضر العيش يبقى الملح دلع». غير أننى - ربما من سأم - لم أشأ مد يدى إلى القفة. نفذ البرد إلى عظامى غير مرتهب من بطانية الجيش ولا من وبرها المعظم.

رحت أرتعش وأتثاءب اعتدلت على جنبى الأيمن انطرحت يدى عفوا على حافة القفة فكرت جديا فى أن أسرب أصابعى خلال

الخبـز الملامس لهـا غيـر أننـى - ربمـا من تعب - لم أفعل. طـويت ساقى تقرفصت تفاديت لسع البـرد قليلا. حلمة الثدى المتجمرة ساكنـة تحت عينـى لا تـريم. أعرف أن الدنيـا فى الخلاء مكفنة بالضباب الأسـود الكثيف. أخذ صوت الريح يطغى على صوت أنفاسى.

أخذت الريح تهبد رءوسها العاتية فى بابى وشباكى، زعزعتها بـرعد عنيف شرس كأن يدًا قوية تمسك بنا جميعا فى قبضتها تلقمنـا فم الـريح. الجدران صفائح زيت قديمة انفردت ثم دقت رقاعها فى بعضها البعض، من أربع صفائح مفرودة على مربع خشبى يتكون الحائط، ومن ثلاث بالطول يتكون الباب، ومن ضلع صفيحة يتكون الشباك، صفائح الجدران راحت تترجم خوفها على نفسها من ألم التفتت بصياح وزئير ونقرزان وطنين.

بدا كأن الريح نفسها تترجم هى الأخرى خوفها من كوارث كونية محيقة بها، خيل إلىَّ أن الخوف أشد شراسة وتدميرا من أية قوة أخرى مدمرة. فى قلب معزوفة الأصوات الشرسة الشريرة الخائفة انشق بجوار قدمى صوت كطلقة الرصاص نفضنى من الأعماق نفضا، فلما استعاد قلبى توازن دقاته تبينت رغم الظلام أن المصباح قد وقع من المسمار الذى كان معلقا فيه فصار إلى هشيم، ووثب ذهنى فى الحال يتأهب لاستقبال الظلام ليال طويلة أخرى قادمة، فالله وحده يعلم متى يقدر لى أن أشترى مصباحا جديدا بعشرة قروش أو أكثر، تذكرت أن زجاجة المصباح كانت مشطوفة الهامة

ضائع نصف رقبتها وكنت أستعيضه بقرطاس من الورق يتجدد كلما احترق. توقعت أننى لو نسيت خلال الاستغراق فى النوم ومددت ساقى فإن شظايا الزجاج وهشيمه سوف تنغرز فيهما وتعلق بوبر البطانية.

بدت المنطقة المتاخمة لقدمى كحقل من الألغام محاط بأسلاك شائكة، ازددت تصلبا، لصقت وركى فى بطنى حتى لامست ذقنى ركبتاى، عدلت من وضع يدى فطوقت بها ساقى كأنما ذلك سيمنعهما من مغادرة هذا الوضع فيما لو غفلت عنهما. استمرت الريح تعصف وأزداد انكماشا أحاول إدخال أعضاء جسمى فى بعضها كأننى دودة القز تسعى لصنع شرنقة حول نفسها بالخيوط الحرير فاخر الحرير وأنا بخيوط الأنفاس ساخنة الأنفاس أنسج رقاعا تمتد تتمطى فوق لحمى الناشف الضئيل المكون من ردىء الخبز والملح والفول والأعشاب والحشائش والنفايات الأجنبية.

بدا كأن بين الريح وبينى «ثارات» شخصية غامضة مجهولة وعميقة راحت ترسل وفودا من صريخها وأنغامها الجهنمية إلى أذنى من منافذ لا حصر لها فى كل الجدران. سرعان ما بدأت أصواتها الحادة تزداد اتساعا وسطوة وأزداد تيبسا ورغبة فى الإمحاء تماما.

بدا كأن الريح انطلقت من عقالها تضاعف صوتها وسطوها وثقلها راح يزحف فوق جسدى مباشرة يزغرد بوحشية بعشرات الأصوات. صرت أرتعد أنتفض إلى أن كفت الريح فجأة عن الهبوب

ثم أخذت أصوات أخرى تقرع أذنى وجسدى متضاعفة متتالية، راح الإيقاع ينثال بدفق يرجنى فتبين لى أن الجدار الذى كان مواجها للريح قد تهاوى فوق جسدى مستريحا بعد طول نضال وهزهزة وكان الثقل يتزايد فوقى إلا أننى استسلمت لسمفونية المطر وقد وقر فى أعماقى أن الشمس وشيكة الشروق.

رقائق ثلج أسود

كنت أسير فى ما بدا أنه شارع عمومى عريض إلى حد أفقدنى الإحساس بمبانيه المترامية على الجانبين، فى مدينة تبدو إقليمية صغيرة ونائمة فى أحضان صمت أزلى طويل. وكنت متعبا ومترددا، قد بدا لى أننى أذهب إلى مشوار فى مكان ما من هذا الشارع.

وضح لى أننى نسيت هذا المشوار مع أننى أسعى إليه بحماس يشوبه التردد، فى تردد يشوبه الحماس بدا أنه لا مفر أمامى من الذهاب إلى هذا المشوار واستمرار السير من ثمة فى نفس الشارع الذى وضح أننى أجهله تماما وأننى ربما أتعرف عليه إذا عرفت طبيعة المشوار، وربما إذا تعرفت عليه عرفت طبيعة المشوار على وجه التحديد!!

اكفهر الشارع فجأة احتشد بالضباب الكثيف، تعذرت على الرؤية ثم انعدمت لبرهة وجيزة. بدا كأننى آلف هذا الضباب وإن

كنت أشعر الآن تجاهه برعب دفين، تتسارع دقات قلبى أسمع دبها يداخلنى يقين بأنه أعلى صوت فى الكون كله هذه اللحظة، أشعر بالخطر، أشعر كذلك أننى موشك على الدخول فى قلب ما يشبه الأمان!

خفت صوت الدب فى حنايا صدرى. رقت كثافة الضباب شيئا فشيئا، بدا كأنها الثوب يتخلله البلى فى رقع كثيرة منحولة كسدى بلا لحم ولحم بلا سدى. منذ برهة طويلة جدا وأنا أتوقع مدى الرهبة التى ستعترينى حينما أرانى قد بدأت أدخل فى صفحة هذا النسيج المتحول إذ خيل إلىَّ أنه سيطبع بصمته هذه فى دماغى.

فوجئت بأننى ودعت خلفى عشرات من هذه الصفحة المتحولة ولا تزال نفس اللوحة تواجهنى بخيوط سوداء قاتمة تتخلل صفحة أقل سوادا عرضها عرض الأفق تتراجع قصادى إلى ما لا نهاية.

ينتفض الرعب فى قدمى، ارتفعت فروة رأسى اتسعت حدقتاى. ميزت أن رقائق السواد التى كانت تسد ملاء الأفق راحت تتساقط كرقائق ثلج أسود لتكشف عن مساحات مبيضة قليلا، سرعان ما بدت كأنها نوافذ على أفق مجهول. سرعان ما راحت هذه النوافذ تتسع شيئا فشيئا تجور على مساحات الظلام تحولها إلى كتل هرمية سوداء. سرعان ماراح اللون الأبيض يتخلل هذه الكتل الهرمية السوداء يصنع منها سلالا من الخيوط الرمادية المنسوجة على أوتار عالية. وضح لى أننى سائر بين صفين من أشجار الكافور والجزورين والحناء والصفصاف والزيتون، وضح لى أن يد بستانى

بداع قد أبدعت فى خرطها بهذه الدقة الهندسية البديعة.. فعرفت أننى سائر فى شارع أظنه الشارع الخامس على وجه التحديد، فى ضاحية أظنها ضاحية المعادى فيما يشبه اليقين!..

وضح لى أننى كنت أقطع فى ليل بهيم لا أذكر متى بدأ، وأننى أخيرا قد بدأت أنجح فى امتطائه والوصول إلى هذه اللحظة.. وعرفت أنه قد بقيت من الليل ساعات قاتمة على أن ألف الشوارع المحيطة لأدهنها بفرشاة اللون الأبيض، ثم أتولاها بالدعك والصنفرة إلى أن تتآكل جلدة الأفق الرمادية عن ثقوب تتسلل منها خيوط الشمس.. حينئذ يحل لى أن أدلف إلى عتبة العمارة المهيبة الكائنة فى عمق الشارع، وأطرق باب شقة رفيق صباى، الوحيد الذى أعرفه فى هذه المدينة، لأجده قد استيقظ وتناول فطوره وتهيأ للخروج إلى عمله، فيصير من حقى أن أستخدم سريره فى النوم بضع ساعات.

الأسنان الحجرية

أضواء شاحبة كانت تبدو فى الأفق البعيد كثقوب فى جبهة الظلام الحالك. خيوطها حاملة الضوء العليل أوحت إلىَّ أن كتل الظلام ممتدة فى العمق إلى آماد بعيدة جدا. وبدا أن خيوط الضوء أسنة من سنان الشمس حادة اخترقت جبال العتمة الصخرية صانعة لنفسها أنفاقا. أحسست أن المسافة بيننا وبين الشمس نفسها خرافية وليس ثمة من سبيل إليها ما لم تحشد الشمس أهبتها وتسلط كل ما فى جعبتها من سيوف تشق هذه الجبال فهى السلاح الوحيد الذى يمكنه النفاذ فيها..

بدا أن هذه أول مرة أرى فيها الضوء بعد فتحة طويلة لست أذكرها ولا أذكر تفاصيلها. انتابنى شعور بالخطر، ربما لرؤيتى المفاجئة للضوء. انتفض قلبى، أخذت أصيح بتلقائية صيحات مندفعة: طفى النور! طفى النور! وكنت أعرف أن صوتى قد لا يبلغ أحد، بل كنت أحس أنه يرتطم بجبل الظلام فيرتد إلىَّ ساخرا من

أصله السريع المضحك. شعرت أن شعر رأسى واقف كالشوك الصلب فى انتظار فاجعة لعلها طائرة من طائرات العدو تكون مختبئة فى ركن غائص من السماء المدلهمة تنتظر بشغف انبثاق لمعة ضوء لتحكم عليها النشان فتدمرنا.

بدا أننى أعرف أن زمن الغارات علينا قد انصرم منذ سنوات وأن هذا لم يغير من الأمر شيئا. صرت أرتجف خوفا من الضوء مع أننى منذ برهة كنت أرتجف خوفا من الظلام، مع ذلك ظللت سائرا نحو الضوء فى حماس شديد وقد راحت فروة رأسى تهبط بالأشواك على مهل كلما احتوانى نفق الضوء..

تزايدت سرعة الضوء نحوى بشكل أفزعنى، يرتفع له أزيز يعلو كلما اقترب. وكان لابد أن أوسع له الطريق، فما كدت أفعل حتى مرق بجوارى ما بدا أنه سيارة مندفعة بأقصى سرعتها.. تابعتها فإذا هى تلتحق بالظلام ولا يبدو من خلفها سوى عيون مرمدة.

تعودت عينى على الظلام فإذا بى واقف منذ أمد بعيد جدا. وكنت قلقا. بعد برهة جاء واحد فوقف بجوارى، تبعه اثنان، فواحد رابع، فتيقنت أننا واقفون فى انتظار الأتوبيس، ولم يكن أحد يتكلم مع أحد. انتبهت إلى وجود دخان يتصاعد من جوف بناية كالحة فى مواجهتنا، فتيقنت أننا لابد نكون فى انتظار المخبز حتى يفتح أبوابه ويبدأ البيع، ثم بدا أننى متيقن من أنها الجمعية التعاونية، ثم فرحت قليلا لأن الجمهور لم يكثر بعد وأننى سأستطيع الحصول على طعام للأولاد. وبدا أننى تعبت من الوقفة فجلست مكانى متقرفصا دافنا رأسى بين ركبتى..

رفعت وجهى قليلا وبربشت بعينى، فوضح لى أن على يمينى واحدا وعلى يسارى آخر، وأن وراءنا ثلاثة مثلنا، وراءهم مثلهم ووراءهم مثلهم إلى مدى بعيد. وكانت العصى الغليظة تنهال على ظهورنا بقسوة ووحشية من مجموعة إلى أخرى، والصراخ من خلفى ومن حولى يرتفع إلى عنان السماء طالبا الرحمة. فلما وصلت العصى إلى ظهرى تبينت أنها من فروع الشجر وكانت تمزعنى وكنت أحاول الصراخ دون أن أجد صوتى.

ولم أكن أعرف لماذا يضربوننا لكنهم كانوا يرتدون الحلل السوداء ويبدو أن بينهم وبيننا عداء قديم متحكم لا أدرى له سببا، وكانوا يطلبون من كل منا فى صراخ وحشى أن يقول: «أنا امرأة» وكنا نقولها بالفعل لكنهم مع ذلك لا يكفون عن ضربنا..

ثم فوجئت بأننا نجرى مذعورين فى رحبة واسعة والأشباح السوداء تلاحقنا بالعصى، وكنا نتعثر فى لحم بشرى تبينت أنه جثث من سقطوا منا ميتين، فيقشعر بدنى ولكن الأشباح السوداء تدوس فوقها بالأحذية الغليظة محاولة تسويتها بالأرض. ثم وقعت مغشيا علىَّ. وكنت أشعر خلال الغيبوبة أننى متمدد على وجهى فوق الأرض وثمة أيد تجرجرنى من يدى داخلة بى فى غيهب مجهول لا نهاية له..

ثم وجدتنى ممسكا ببلطة صغيرة فى حجم الكف أضرب بها فى أسفل جبل شاهق جبار وقد بدا أن هذه هى مهمتى الرئيسية منذ عهد طويل، ولاحظت أننى أرتدى بذلة ورباط عنق وحذاء لكن

البذلة مصنوعة من قماش أزرق كالح. وكنت أتصبب عرقا وصدرى يرتفع وينخفض من اللهاث. استرحت برهة مسحت فيها عرقى ثم استأنفت العمل فإذا بى شقا فى قلب الجبل فاندهشت كيف لم أره من قبل.

أشرقت فى ذهنى فكرة رهيبة ارتعت منها لأول وهلة، ثم رحت أتلفت حوالى فى تلصص، فلما لم أجد شرطيا يحرسنى ضربت بقدمى فى بطن الجبل ومضيت ماشيا خلال الشق المتعرج ولاحظت أن البلطة لم تعد معى. لاحظت أيضا أن الشق طازج وأن مواضع الانشقاق فيه تبدو كأسنان حجرية بيضاء طرية ذات رائحة لم تلوثها الريح بعد.

اصطدمت بجزء لم ينفصل تماما فبدا كأسنان متباعدة فى فكين مضمومين. وبدا أننى لو أمسكت كل فك بيد ووسعت بينهما ما يسمح بمرورى فسوف أنجح لكن الأسنان الحجرية كانت مدببة ومخيفة فبقيت واقفا مكانى لا أريم فى انتظار معجزة إلهية تلهمنى الفعل المناسب. غير أننى بعد برهة وجيزة شعرت أن الفراغ الذى أقف فيه بين الشقين يضيق شيئا فشيئا حتى لتكاد الأسنان الحجرية تغوص فى جسدى.

رحت أنظر من خلال الأسنان الحجرية المتلاقية من فكى الشقين فى الجزء الذى لم ينفصل تماما فرأيت شبكة من الظلمة على أرض مضيئة بعض الشىء راحت تترى من خلالها مناظر عجيبة: رجل أنيق يلوط بطفلة صغيرة.. شاب نحيل يمسك آلة

موسيقية ويعرض للبيع فتيات عاريات.. قصاب جسده مرصع بالخناجر التى تقطر دما يمشى فى خيلاء وخلفه موكب كبير يزفه بالطبل والزغاريد.. وكان واضحا أنه يرانى ويقترب نحوى.. وقد شرعت أصرخ طالبا النجدة لكننى لم أجد صوتى.

وفود الضوء

كان الصمت قد ضرب أطنابه بيتنا لوقت طويل جدا. ولابد أن ثمة أصدقاء كانوا يسيرون معى فى الطريق بدليل أن طنين الكلام الذى لابد أننا كنا نتبادله لا يزال يملأ أذنى بهدير راعش فلابد إذن أنه كان كلاما خطيرا. أمن طول الصمت أو طول الطريق أو طول الزمن هذا الملل الذى يبدو أنه هو الذى يكدرنى الآن؟..

وكان قد وقر فى ذهنى أن من لابد أنهم كانوا أصدقائى قد ابتعدوا قليلا منفردين بالكلام أو بالصمت. وكان قد وقر فى ذهنى أيضا أننى أسرع الخطو للحاق بهم. وكنت مشغولا بحبك نكتة ما أدخل عليهم بها لعلها تبدد جحيم هذا الصمت..

لكن خطواتى المسرعة اللاهثة لم تلحق بشىء. فإذا هى تزداد سرعة، وإذا أنا أسير فى الطريق وحدى لاهثا وليس ثمة من بشر على الإطلاق. وكنت أسمع لخطواتى صوتا مدبدبا، مالبث أن صار

زلزلة ذات وقع رهيب.. نظرت خلفى متوجسا، فإذا بناس كثار من كل الأعمار والألوان يجرون خلفى قادمين من حوارى جانبية ومن عمق الطريق الذى اتضح أنه شارع ملىء بالعمائر الحديثة من زجاج وألمونيوم: ظننت أنهم يطاردوننى لكن لم أفهم لماذا المطاردة فأسرعت فى الجرى دون أن أتوقف لأسأل علام المطاردة. فلما أسرعت بدءوا يطاردوننى بالفعل..

وبدا أننى لابد قد ارتكبت جرما خطيرا، وبدا أننى أبحث فى ذهنى عما أكون قد فعلته ضد كل هؤلاء. فى الحال تضاءل عدد المطاردين فآب إلى ثلاثة شبان صغار يلهثون خلفى بإصرار شديد ورأيتنى طفلا صغيرا يجرى بأقصى سرعة فى طريق زراعى تحاذيه حديقة طويلة وارفة، وكان واضحا أن هؤلاء الشبان الثلاث هم أبناء صاحب الحديقة وأننى قد سرقت حشو جيوبى كلها بلحا وجوافة من أشجار الحديقة متوهما أن كون أبى هو الجناينى الذى يزرعها ويرويها ويشذبها سيشفع لى ذلك. لحظة أوشكوا على الإمساك بى أطلقت صرخة فزعة واندفعت بآخر رمق كطائر فى فراغ رمادى.

وجدتنى فى حارة مبنية بالطوب الأسود، تبينت بعد برهة أنها حارة «الجفار» فى بلدتنا. وكنت أجرى بقلب خافق ومخلاة المدرسة تتشال وتتحط على قلبى ممسكا بطربوشى القصير فى يدى. وكنت أعرف أن «أولاد بقوش» تاجر الحبوب والأقطان يتربصون بى دائما عند هذه الحوادية ليضربونى دون سبب، ثم تذكرت أننى كنت نفرا فى حقولهم قبل أن أصير تلميذا معهم وأنهم لهذا يضربوننى..

صرت فى شارع القطاطنة الأكثر أمنا.. مع ذلك لا أكف عن الجرى.. بدا لى أن السبب فى الجرى هو اقترابى من دار الخاصة المهجورة منذ زمن بعيد تسكنها العفاريت وقطاع الطرق. ابتعدت دار الخاصة وأنا موزع بين جرى وهرولة. بدا أننى لست أحس بالوحشة رغم أن ثمة أمرا يبدو خطيرا قد حدث! ..

لحظتها رأيتنى مرتديا كامل ثيابى ومنظارى الطبى الأنيق وأحمل حافظة أوراقى الجلدية وكان يبدو أننى قادم من الصحيفة التى أعمل محررا بها وكان يبدو أيضا أننى قد انشغلت فجأة بمحتويات حقيبتى إذ رحت أحاول استعادتها فى ذهنى حتى توثقت من أنها بعض أوراق وبعض كتب فى الأدب أنوى عرضها لصحيفة عربية لها مراسل يحاسبنا من جيبه الخاص بعشرة جنيهات عن الموضوع وهو حر التصرف فيه بعد ذلك ونحن نقبل عشرا خالية من الضرائب ونظرات المن نرطب بها الجفاف الصلد ونبل ريقنا الناشف. ثم بدا أننى قد صرت متوجسا بعض الشىء من محتويات الكتب فيما لو صودرت..

لحظتئذ انتبهت إلى أننى واقف بين جمع هائل جدا فوق كوبرى المشاة فى ميدان بدا أنه ميدان التحرير وكان بجوارى بعض الأصدقاء الأعزاء تفصلنا الجموع برهة لتلاقينا فى أخرى فيرتسم على وجوهنا طابع طفولى باسم فيه الكثير جدا من الغبطة والبهجة. كان المنظر جميلا بل جميلا جدا كقصيدة شعر كمنظر طبيعى حافل بالألوان فى لوحة خالدة بجيمع ألوان الوجوه والثياب

وأشكالها وجميع الأعمار ونزقها، والكوبرى كلهساير داير يعج بالخلق كالورود تتسلق الأسوار، ومن فوقهم أدوار أخرى من أسوار البلكونات والسطوح طارحة بالورود البشرية تكاد رءوسها فى العلالى تتصل برءوس جموع هائلة مقبلة من جميع الشوارع المطلة على الميدان تحمل اللافتات تزأر بالهتافات الملتاعة الصاعدة كالنحيب الصادر من قلب موجوع بألم سرمدى: «إحنا بنسكن عشرة فى أوضه وهو بيلبس آخر موضه».. «عملتوا إيه فينا واليهود فى سينا». الأصوات تأتى من كل فج عميق وتصب فى الموكب غضبة شرسة مخيفة مبهجة معا. الحرائق هى الأخرى كانت ترسل ألسنة اللهب من كل صدر تتطاير فى الفضاء تسابقها الزغاريد!..

ثم وجدتنى والأصدقاء قد صرنا فى قلب الجموع الهادرة فى الأرض وأننا ننظر إلى جموع المطلين فى سعادة وكان واضحا أننا سعداء بأن قد صرنا بدورنا فرجة لهم منذ التحقنا بموكب الفاعلين. على أننى لاحظت بعض تردد لا يزال يبعدنا إلى الأرصفة ويسحب صوتنا عن جماع الصوت الهاتف. وضح أننى كنت أفكر فى نفس الخاطر الذى يفكر فيه بعض الأصدقاء المرافقين، إذ همس أحدهم فى أذنى بدون مناسبة: سأقول أننى صحفى وكنت أرافق الموكب بغرض مهنى!.

ضحكت وضحك الآخرون لمداراة الخوف الدفين الذى ومض على وجوههم فجأة، قال أحدهم: زمانهم صورونا وانتهى الأمر.. فبدا أننى قد استرحت لهذا الخاطر..

فى الحال فوجئت بأننى وهؤلاء الأصدقاء نجرى وحدنا فى شارع مظلم محاذ لجسر سكة حديدية أغلب الظن أنها خاصة بالمترو، وكان يجرى خلفنا ناس آخرون، تلاحقنا طلقات الرصاص وتحف بنا الحرائق من كل ناحية وكانت ألسنتها وألسنة الرصاص المنفجر هى الشىء الوحيد الذى ينير لنا الطريق لبرهات خاطفة وثمة صيحات هازئة أظننى سمعت أننا محكوم علينا بالموت إذا خالفنا القانون وظهرنا ليلا فى الشوارع، أظننى سمعت أن عربة أتوبيس تتأهب للقيام على مبعدة فإذا وسط جمع هائل نندفع فى الجرى بأقصى ما فى البشر من عزم وكان واضحا أننا نريد أن نعتصم بالعربة كأنها حصن الأمان أيا كانت وجهتها..

أشرفنا على رحبة صغيرة بين مبان كثيفة فإذا بدبابة من دبابات الجيش تصوب مدافعها نحونا. ارتدت بنا الجموع دفعة واحدة لتتصادم وتقع فوق بعضها صارخة. تدفقنا فى شارع جانبى ضيق، جوبهنا بفوهات المدافع تستطيل نحونا وتستطيل.. اختفت الأبنية تماما بل اختفت السماء وصرت ومن حوالى مدفونين بين كتل من الأجساد تزحف إلى الأمام تارة لتستدير فجأة فترجنا ثم ما تلبث أن تستد وترتد ثانية وظللنا هكذا أمدا طويلا بدا كالدهور. ثم لانت حاشية الزحام شيئا فشيئا ثم انجاب الضغط عن الأجساد ثم انجاب الأفق..

فإذا بنا جماعات جماعات طال بها الجرى واللهاث وكان على كافة الوجوه حزنا بهيجا وفى العزائم حماس باهر وفى الجباه تطلع

سامق نحو الأفق العالى. وكان واضحا أن شيئا خطيرا قد حدث وشيئا عظيما يحدث الآن فيجمع بيننا وأننا غير مطاردين بل مندفعين محض إرادة محض تلقائية فبدا لى أننا هرعنا - لابد - لاستطلاع الغد. الأجساد الزاحفة تتكاثر تتصادم فى عنف تعتذر لبعضها تقبل الاعتذار فى رقة وسماحة.

ثم صرنا إلى إعصار رهيب يزحف ببطء لكنه بطء السرعة التى تبدو من فرط سرعتها كأنها ثبات. فوجئت بأننا قد عدنا إلى نفس الميدان من جديد لنجده يشغل بالبشر ولا مكان فى أرضه أو سمائه لقدم أو متسع لبعوضة، مئات الملايين من الرءوس والحناجر والأيدى يصدر عنها زئير خرافى كأنما الكرة الأرضية تزفر تصرصر تبث ما تراكم فى جوفها من ألم فيصعب علىّ أن أعرف إن كان ما أسمعه غناء شجيا أم بكاء أم صلوات أم تراتيل، لكن ثمة طائرات تئز فى السماء رائحة غادية إلى أن ظهرت بينها طائرة هليوكبتر أخذت تتهادى فوق رءوسنا صانعة ما يشبه الفرح الكبير يتساقط منها ما يشبه حشرجة البكاء والنحيب.. فعرفت أننا فى ميدان التحرير حقا وأننا نودع جثمان الزعيم عبد الناصر وأن ملوك وزعماء الكرة الأرضية قاطبة جاءوا يشاركوننا الشرف..

ثم رأيتنى واقفا وحدى فوق كوبرى المشاة فى نفس الميدان وكانت الدنيا ظلاما حالكا والأرض من تحتى مليئة بالحفر وكان الصقيع ينفضنى وقد بدا لى أننى محتمل له، ثم بدا لى كأننى على موعد مهم جدا مع مجهول سوف يجىء هاهنا وأننى فى شوق شديد إليه وعلى ثقة من مجيئه.

الموكب الذى رأيته فى بيتنا

كنت مقبلا نحو بيتى وثمة اعتقاد بأننى قادم من سفر طويل مرهق. تذكرت أن عربة الأتوبيس قد ألقت بى عند محطة بعيدة بعد أن جردتنى من آدميتى وأننى قطعت المسافة من المحطة إلى هنا سيرا على قدمى..

تأهبت لدخول البيت فاحتجزتنى بحيرة منطرحة على أرض الشارع تمتد من عتبة باب بيتنا إلى حيث أقف وتخترق لنفسها روافد لا حصر لها تزحف نحوى فعرفت أنها مياه المجارى الطافحة هكذا منذ ما يزيد عن ثلاثين عاما. وكان علىَّ أن أمد بوز حذائى بحذر أتحسس قطعا من الحجارة وقوالب الطوب وضعناها وسط محلول الغائط لنمشى فوقها بدربة وبهلوانية. تذكرت أننا كنا قد تحررنا من هذه البحيرة القذرة منذ مدة قصيرة، ثم تذكرت أن هذا يحدث كثيرا وأنها سريعا ما تعود كقدر لا مهرب منه..

وقفت حائرا لا أدرى ماذا أفعل لكى أدخل بيتى. وكانت الدنيا ظلاما حالكا ومن المستحيل أن تتعرف القدم على أى نتوء تدوس فوقه. فكرت أن أنادى على أولادى كى يضيئوا لى المصباح المعلق على الباب علنى أستطيع عبور هذه البحيرة. لكن البيت كان يسبح فى ظلام دامس فأيقنت أن النور مقطوع عن المنطقة كلها. مع ذلك رحت أهتف باسم ابنى بصوت خافت بشىء من الحرج ثم بجرأة ثم أخذت أجأر بالنداء لكن بلا جدوى. وكانت حافظة الأوراق المعلقة فى كتفى قد بدأت تثقل وينتابنى إحساس بأننى يجب أن أتخلص منها إذ بدت كأنها مصدر كل متاعبى..

أخذت أروح وأجىء فى انتظار معجزة طارئة. وكنت ألهث وليس فى ذهنى سوى طفلى الصغيرين يبكيان أمام باب الشقة بعد أن كلت يداهما الحلوة الطرية من الطرق على الباب، ثم ارتددت مذعورا فى اتجاه البيت وقد جاءنى يقين مفاجئ أن أحدا من أولادى لا يوجد بالشقة، فصرعنى الارتياع حتى أعجزنى عن الصراخ، وتذكرت أن زوجتى كثيرا ما شمرت ثيابها وخوضت فى قلب الغائط حاملة الأولاد واحدا وراء الآخر، وجاءنى إحساس بأنه قد آن لى أفعل ذلك أنا الآخر ولو هذه المرة فقط بغية الاطمئنان عليهم.

أوشكت على الفعل لكننى تسمرت فى وقفتى على البقعة الناشفة ربما لشعورى بأن الثياب التى أرتديها هى الوحيدة الصالحة للخروج. تقرفصت محاولا النظر فى مياه الغائط الزرقاء

كالنيلة لعلنى أتبين مواضع الأحجار الغارقة تحت الطفح الزائد، فرأيت بقع النجوم وشرخة القمر الكئيب وأسطح البيوت ورأيتنى نقف جميعا على رءوسنا فى محلول الغائط الذى بدا أنه لم يعد كريها.

إذا بى قد تربعت مستريحا على شاطئ هذا المستنقع الذى بدا لى أنه مصرف نمرة تسعة فى قريتنا، أمسك ببوصة الصنارة لاه عن غمزها فى تلذذ حيث إننى مشغول بتأليف أغنية حب سأبعثها اليوم إلى البنت «رئيفة» التى أحبها..

ثم إذا بى متربع وسط رهط من أصدقاء صباى على مصطبة فى مواجهة شباك حبيبتى فى الطابق الثانى لبيتهم المبنى بالطين أستمتع باستعادتهم لى مقاطع الأغنية التى ألفتها، أستمتع أكثر بعدم اقتناعهم البادى فى عيونهم بأننى أستطيع تأليف هذا الكلام المسبوك. عيناى معلقتان بشباك الطابق الثانى القريب جدا من الأرض والضوء العليل ينساب من خلال أعواده الحديد ليلقى بيننا شيئا من الونس، صورة وجه الحبيب تنطبع على وجوهنا وصدورنا من حين إلى حين كلما أطلت هى أو مرت ببطء كأنما لتبلغنى أن صوت رسالتى قد وصل..

وكنت أضرب فى عمق الليل متأبطا كتابا مطويا أغلب الظن أنها قصة مجدولين أو تحت ظلال الزيزفون أو ربما كانت الشاعر للمنفلوطى، أغلب اليقين أنه ذلك الكشكول الذى جمعت فيه مقتطفات من أشعار الحب والغرام وحكم أبى الحسن البصرى

وطرف أحشرها حشرا فى مواضيع الإنشاء، وممسكا باليد الأخرى جرابا شبكيا به حفنة من أسماك جافة تحمل لون البرك لم تعد تصلح لشىء إلا كدليل على أننى كنت أقضى كل هذا الوقت فى الصيد إذا ما عنفت من أحد..

بدا لى كأننى أعرف أن هذا محض افتراء أتذرع به وأننى عدت من رحلة الصيد وراء الأصيل فقضيته ومعظم الليل مطوفا حول دار حبيبتى من صديق لآخر من مجلس لآخر حتى تنجح لعبتى فيرسو المطاف بجلسة المساء تحت شباك حبيبتى. وبدا كأن معرفتى لهذا لن تغير من الأمر شيئا حيث قد اخترت درب الحبيب محتملا بل متناسيا كل ما عداه، ثم وضح لى أننى آخذ سمتى نحو دارنا فى القرية..

باب دارنا دائما بلا ترباس من الداخل وهكذا وجدته. دفعت الباب ودخلت. أبى مضطجع فى المندرة يقرأ على ضوء اللمبة نمرة خمسة فى كتاب أثق أنه كتاب «دلائل الخيرات». أمى متمددة بجواره على الأريكة. لم يشعر أبى كالعادة.. تسللت إلى الغرفة التى ننام فيها كى أستخفى بسرعة تحت البطانية وأتصنع الاندماج فى النوم العميق..

دفعت الباب برفق حتى لا يزيق فينتبه أبى وتصحو أمى فلا أخلص من تعنيفها وكنت أخشى من عصلجة الباب وجموده لفرط ما تراكم على مفصلاته من صدأ. لدهشتى انفتح الباب بسهولة.. ففوجئت بأننى قد دخلت صالة شقتى التى استأجرتها فى المدينة

بعرق خمس سنوات قضيتها مغتربا فى بلاد وأزمنة قاحلة تضخ الفراغ والسأم والموت المبكر. رأيت زوجتى منزوية فى عمق الصالة ترضع طفلنا الوليد، وبقية الأولاد يجلسون بدون مذاكرة فيما يشبه الاحتفال الصامت. أغلقت الباب ورائى وتقدمت منهم قائلا:

- سا الخير ياولاد.

وكانت زوجتى على غير العادة مبتسمة فأدركت أنها مرتدية وجهها الذى تقابل به الضيوف.

قلت: فيه إيه؟

اتجهت أنظارهم ورائى، فاستدرت نظرا.. فوجئت بحبيبتى «رئيفة» تجلس على الكرسى المواجه لزوجتى. كانت كعهدى بها صغيرة فاتنة أحسست بارتباك شديد. أخذت أنظر حوالى كلص انكشف أمره أمام أولاده، لكن بدا لى كأننى متماسك وكأن الأمر طبيعى..

تقدمت فى حماس لأسلم عليها. فلما اقتربت منها اختفى وجهها الحقيقى خلف طبقة من الأصباغ الملونة بشكل فاقع. كانت واقفة فى استقبالى تتقصع داخل فستان آخر موضة محزق يكشف عن أسرار جسدها فبدت أكثر عريا من العرى. تذكرت أنها كانت عنوانا على الأنوثة فى بلدتنا وأنها كانت أكبر مستفزة لرجولة الرجال من فرط حيائها فما بالها الآن مبتذلة تتشدق باللادن بشكل مثير ممجوج تقول كل عضلة فى وجهها أنها مومس حقيرة من بنات الليل مسفوعة بجمال خارق. اشتهيتها رغم ذلك لكننى سرعان ما شعرت بالتقزز بالغثيان بالحطة والحرج الشديد.

تقصعت هى مرسلة خلال التشدق باللادن صوتا طريا ممطوطا كعرق العسل حلوا لكنه لزج يعلق باليد والثياب. تذكرت أننا لم ندفع القسطين الأخيرين من ثمن الغسالة الكهربائية حيث تعارض دفعهما مع دفع أقساط المدارس. تذكرت أن آخر أخبار حبيبتى عندى ـ منذ أوائل السبعينيات تقريبا ـ كان خبر زواجها من ثرى ليبى.

تذكرت أننى وزوجتى كثيرا ما تحدثنا عن حبيبتى هذه باعتبارها واحدة من بلدتنا انشغلت البلدة طويلا بأخبار الثراء الذى هبط عليها والأملة التى أصبحت فيها فأحسست أن وجودها فى بيتنا الآن ليس جديدا بل ليس غريبا. الجديد هو ابنتها العروس التى تصطحبها وكانت نسخة منها قديما.

ثم رأيتنى أجلس قبالتها مرهقا مهموما أسبح فى عرق لا أدرى إن كان من التعب المؤلم أو من الحرج. وكنت فى دوار شديد وكنت أفكر فى ما إذا كان قد ظهر منى شىء ينبئ عن علاقتى القديمة بها. خيل إلىَّ أنها تحدثت كثيرا جدا وأحسست بالفجيعة حين انتبهت إلى أننى وأولادى مندمجين فى الفرجة على غانية مثيرة هبطت علينا من كوكب غريب، وأن أفواهنا جميعا مفتوحة من البلاهة والذهول ورأيت الحياء يختنق فى عيون أولادى من هذه التى توشك أن تضاجعنى أمامهم وأمام ابنتها العروس.

لا أدرى ماذا قالت رغم طول حديثها، لكن خيل إلىَّ أنها ذكرت أنها مقيمة فى المدينة منذ سنوات وأنها تملك الستر، ربنا يعطيك

عددا من العتبات الحافلة بشقق التمليك تحت أمرك لو أردت لكن لنا عندك خدمة بسيطة أنت لها يا ابن بلدتى يا صاحب العشرة القديمة - وتتكئ على لفظ القديمة بنت القديمة - يروعنى أننى لم أعرف بعد نوع الخدمة التى جاءت تطلبها منى، والتى تعبت فى سبيلها فى البحث عن عنوانى. والتى من أجلها ترشونى مقدما بتلعيب الحواجب والأرداف وهز انكفاءة البطن وغمز العيون الكحيلة القارحة الواسعة تندب فيها رصاصة. هذه مقدمة الرشوة فما بالك بالرشوة نفسها! يروعنى أكثر اكتشافى بأننى يمكن أن أؤدى خدمة ما من أى نوع لأى بشر وأنا الذى أنفقت العمر كله أسعى فى طلب الخدمات من الآخرين!..

ثم إذا بها تنهض واقفة دون أن أعرف ما إذا كانت قد أوضحت لى نوع الخدمة أم لا. وبدا أننى رغم توترى من عدم معرفة ذلك غير مرحب بالاستيثاق منه.. فنهضت ابنتها وسرعان ما نهضت أنا الآخر ونهضت زوجتى وقد بدا أننا جميعا مرحبين بتوديعها فيما يشبه الراحة بالخلاص منها رغم ما أثاره وجودها فينا من بهرجة.

سلمت علينا ثم مضت فى اتجاه الباب. فمضينا جميعا خلفها نودعها. فإذا بنا نودع موكبا هائلا راح يقبل من أماكن مجهولة من داخل شقتنا ويقبلون علينا مسلمين واحدا وراء الآخر قبل اتجاههم إلى الباب. ظننت لأول وهلة أننا نتلقى العزاء فى عزيز لدينا، لكن الجمع كان مرحا ومبتسما وكانت وجوههم كلها مألوفة لدى وكنت أتمعن فى ملامحهم فيما أقول مبتسما كالأهبل فى الزفة:

- أهلا وسهلا شرفتوا.

وكانوا يتتابعون فى كثافة لتتضح وجوههم أكثر فأكثر فأتبين فيهم أنور السادات، بيجين، النبوى إسماعيل، الملك الحسن الثانى، جولدا مائير، بطرس غالى، كمال حسن على، الخديو توفيق، فؤاد محيى الدين، المشير عامر، شمس بدران، صوفى أبو طالب، حسن الإمام، نجيب محفوظ، حمزة البسيونى، حسن المصيلحى، صلاح نصر، الملك فيصل، إلياس سركيس، موسى صبرى، سمير الإسكندرانى، أنيس منصور، صبرى أبو المجد، توفيق الحكيم، إبراهيم سعده، ياسمين الخيام، رشاد رشدى، ومن هذا؟.. كمال عمار؟ محمد العزبى، محمود المليجى، الرئيس نميرى، شاه إيران، كيسنجر، فاروق الباز، عبد الستار الطويلة، عبد الرحمن الشرقاوى، إبراهيم الوردانى، ثروت أباظة، محسن محمد، ومئات أخرى من الفنانين وصحفيين والمعارف والملحقين والألاديش والمحاسيب..

داخلنى زهو كبير وابتهاج لمجرد أن يعرفنى هؤلاء السادة النخب.. ثم اندهشت بالغ الدهشة من أن يتجمع كل هؤلاء معا فى وقت واحد فى شقتى على وجه خاص فى هذه اللحظة. اندهشت أيضا كيف استوعبتهم شقتى وكيف استطعنا أن نستضيفهم. ثم داخلنى وهم لذيذ حلو بأن خيرا وفيرا لاشك قد حل بدارى فى غيبتى على نحو ما استعدادا لقيام هذا الحفل المهيب الذى قدر لى أن أشهد ختامه. ثم إننى أخذت أودع فلولهم خارج باب الشقة

مطلقا صيحات الوداع حتى يسمعنى كل الجيران ويتفرجوا على هذه الأملة التى وجدتنى فيها.

ثم استدرت عائدا لأجدنى وزوجتى واقفين فى مدخل البيت فى عراء وسط ريح صرصر عاتية وكل منا يضم فى حضنه يطوى جناحيه على طفلين ينتفضان. وكان يبدو أن الريح قد أدركتنا خارج الشقة أثناء استقبالنا لخبر استشهاد أخى فى حرب فاصلة فى برقية هبطت منتصف الليل تطلبنى لاستلام جثة أخى وأن الريح الغادرة صفعت كل شىء فى شقتنا فدمرته ودفعت باب الشقة فأغلقته دوننا. وكنا نجأر بالصراخ والعويل بأعلى صوت وأفظع ألم، لكننا جميعا نضيع فى عويل الرياح.

من مأثورات عائلة شبراوى

«سعيد بن شعوطه» يسمع طول عمره أن مصر أم الدنيا، وأنها بلد العجايب. وكان من عادته أن يصدق كل ما يسمعه، لكنه لم يكن مستعدا للتصديق إذا قيل له: غدا تسافر إلى مصر. مصر مصر؟ أى نعم مصر القاهرة هكذا سأل: «سعيد بن شعوطه» وهكذا تلقى الرد من عمه الشيخ على شخصيا.

ـ تف من بقك ياعم الشيخ على، دى مصر لو شافتنى تهرب ولا يمكن تنهد.

لكن عمه الشيخ على لم يكن يمزح بل لم يكن فى حالة تسمح له بالمزاح .. فلكزه بعصاه التى هى فرع من الرمان وقال فاتحا فمه الخرب عن آخره:

ـ مرات عمك متأخرة فى القصر حتروح تجيبها بدالى.

عرف سعيد بن شعوطه، أنه القصر العينى، ذلك الذى يقع فى

مصر القاهرة، والذى نقلت إليه زوجة عمه الشيخ على منذ أكثر من شهر فى زفة واحتفال مهيب جعل أولاد الأسرة يتناسون مصيبة المرض ويقولون متفاخرين فى كل مناسبة: أدخلناها القصر العينى. فهل يكون القدر اللطيف قد كتب لسعيد بن شعوطه أن يحظى بأكبر مفخرة ينالها فرد من أسرته هى آن يسافر إلى مصر القاهرة أم الدنيا وبلد العجائب؟ وتقدم من عمه الشيخ على فاحتضنه رأبتا عليه بحنان:

- رقبتى ياعم الشيخ على.

وهكذا بعد ثلاث ساعات فى عربة أجرة وخمس فى قطار الدلتا وصل إلى مصر مع مقدم المساء. وبعد بهدلة فى الأتوبيس وصل إلى القصر العينى مع وفد من البلدة هو فيه ممثل العائلة. وماصدق أن اطمأن على زوجة عمه إلا ونزل يحجل فى الشارع الملعلط البراق، وكانت الابتسامة تتهدل على شفتيه كلما اقترب من جماعة يسألها عن شىء فتزور عنه وتمضى غير عابئة به، أو يلقى السلام على أحد فلا يرد عليه أو يضحك لطفلة حلوة فتكشر فى وجهه بخوف.. حتى صار من فرط التعب والكمد يبدو كخيال المآتة دبت فيه روح هزيلة تكفى بالكاد لتحريك ساقيه وذراعيه بخطوات يضيع صوتها فى الطريق الصاخب الحافل.

لكنه ظل يمشى ويمشى، مبهورا تارة خائفا تارة أخرى، إلى أن توغل فى حارة أودت به إلى حارات. كان خلالها يحس بالراحة تتسلل إلى نفسه شيئا فشيئا. إذ كان شيئا فشيئا يلتقى بناس

تشبهه فى السحنة والملامح وترتدى نفس ملابسه. وحين سأل أحدهم عن شىء رد عليه ببساطة، بل أطال معه الوقوف بعض الشىء، ورنت فى أذنه كلمة: أنت فى سيدنا الحسين، فداخلته البهجة العظيمة وانبرى يقرأ الفاتحة مثنى وثلاث ورباع لكل من وردوا على ذهنه من أحياء وأموات، وبين الفاتحة والأخرى يرى ناسا أكثر شبها به، لكنهم ماضون فى سبيلهم لا يعبأ أحدهم بالآخر، حتى الذين يمشون متجاورين، وحتى الذين تتوحد ملامحهم بنفس الدم والشكل يمشون دون كلام.. فكان يغتاظ ويكبت فى نفسه أصواتا تشبه العراك..

أول ابتسامة حقيقية رآها فى مصر أم الدنيا، أقبلت عليه طائرة من وراء نصبة خشبية أنيقة تتناثر فوقها أكواب ودوارق زجاجية مليئة بسائل ملون عرف أنه نوع من الشربات، وحولها من يشربون. ظلت الابتسامة تجذبه بقوة وحب إلى أن حاذى النصبة ورأى نفسه يقف تجاه صاحب النصبة صاحب البسمة المشعة، ويقول: بكام الواحد من دول؟ وأشار إلى الأكواب.

فقالت الابتسامة: بقرش يا بلدينا.

ففى الحال دب «سعيد بن شعوطه» يده فى المحفظة أم جزلان وأخرج قرشا عليه صورة الملك فاروق مشرشر وأحمر. وقال كأنه يخطب الود بصرف النظر عن الشراب:

- هات بقرش..

بنفسه سلمه الرجل كوبا، تناوله «سعيد بن شعوطه» ورشفه فاستحسن مذاقه وبرودته فشربه على جرعات بطيئة جدا فيما هو

يواصل النظر فى وجه الرجل يستفزه للكلام معه. وظلت الابتسامة تتسع وتتسع، بل وتتراقص فرحة: ومنين يا بلدينا.. م الحتة الفلانية.. أحسن ناس.. تعيش يا حاج.. أصل الحكاية.

وهكذا حكى «سعيد بن شعوطه» حكايته من طقطق لسلامو عليكم وعرف أن صاحب البسمة المرحابة اسمه شبراوى وأبوه يوسف بن إدريس من الشرقية بلد الكرم على سن ورمح.

ـ ده من أصلك..

وأن شبراوى كان مثله قد حلم بالسفر إلى مصر أم الدنيا وجاءه ـ فجأة ـ مشوار إليها، فمنذ جاءها بقى فيها لا يبغى فكاكا. وليس يدرى إن كانت هى التى ابتلعته فى جوفها أم أنه غافلها وانساب فى أمعائها، لكنه جاور الحسين ومن جاور الكريم لا يضام.

معلوم والله يا حاج..

ـ وخليها على جناب الله.. ومع السلامة.

ومنذ عودة «سعيد بن شعوطه» من مصر وطوال عشرين عاما بالتمام والكمال وهو لا يكف عن ذكر هذه الحادثة بمناسبة وبدون مناسبة، فيكفى أن تجىء سيرة مصر فى كلام عابر لكى ينبرى «سعيد بن شعوطه» فيحكى قصة الابتسامة وصاحبها، التى تعطيك فوق البيعة شربات تشربها مقابل قرش واحد يا بلاش. ويشفع قوله بيمين مغلظة أنها شربات فيها بركة الحسين.

كانت هذه الحكاية هى الدليل الوحيد القاطع على أنه - ذات يوم أخذ فى التباعد - ذهب إلى مصر آم الدنيا ووطأها بقدميه.. وكان يصنع لصاحب الابتسامة مقاما صغيرا مشرقا بجوار مقام الحسين..

ولم يكن سعيد بن شعوطة يتصور أن القدر الممراح سينيله المفخرة مرتين وأن يقدر له بعد مضى عشرين عاما بالتمام والكمال أن يسافر مرة ثانية إلى مصر أم الدنيا، وعن جدارة بالمفخرة هذه المرة، فغدا يصطحب ابنه الكبير إلى مصر لكى يؤجر له مسكنا فيها ويقف بجواره إذ يلتحق بالجامعة.. والله عشت وشفت يا سعيد يا بن شعوطة..

وهكذا، وبعد ساعتين اثنتين هذه المرة فى سيارة الأسطى حمدى ابن حارتهم صار فى مصر يدب فوق أرضها ويراها رؤية العين، وقد حلا له أن يجاهر بتجاهل الناس عن عمد كأنما ليقول لهم: طظ فيكم عرفت خصالكم ولكنكم لستم أهلا لى، إنما هناك من هو لى أهل وهأنذا متوجه إليه. وابنه لم يفهم شدة إصراره على زيارة الحسين قبل أى شىء. لكنه لم يكن يرى الابتسامة الضاوية المتربعة فى دماغ أبيه..

أخذ «سعيد بن شعوطة» يخب فى جلبابه الصوف الجديد ذى الأكمام الواسعة ويعدل طاقيته وطوقه فى كل حين. يلف مع كل حوادية ويستقيم مع كل ممر ويتوقف عند كل نصبة خشبية فى الشارع وابنه يتعجب ولا يعرف عم يبحث..

رغم كثافة الزحام وارتفاع الصخب واشتداد سرعة كل شىء حوله، فإنه ـ أخيرا ـ وجدها.. الابتسامة العريضة المشعة.. غير أنها كانت هذه المرة قد حملت على كاهلها عشرين عاما ضخاما. انطفأت فيها لمبات كثيرة، وباتت تكشف عن فراغ هائل بين الفكين النحيلين، وكانت واهنة، تحاول اصطياد المارة من خلال الظهور والأكتاف والأشياء المحمولة..

توقف «سعيد بن شعوطة» دفعة واحدة وصار يجز على أضراسه كأنما ليضبط انفعاله قبل أن يرتمى فى أحضان الرجل دفعة واحدة كدفقة الشوق الذى انفك سراحه بعد طول احتجاز. راح ينظر فى عينى الرجل بإمعان نظرات ذات معنى، فلا يظهر فى عينى الرجل أى انفعال جديد، حتى بردت أطراف «سعيد بن شعوطة»، وكان القرش فى كفه لا يذكر متى جهزه، فلما نظر له صاحب الابتسامة مستفهما تقدم منه أكثر ناظرا فى عينيه قائلا بلهجة ذات معنى:

ـ .. وهات كمان بقرش..

سقوط الظل

جدار طويل يمتد على مساحة سبعة أفدنة ويرتفع إلى سبعة طوابق من طوابق زمان، سبعة شبابيك مستطيلة تنزل تحت بعضها من أعلى طابق حتى الأرض، ثم تتكرر متجاورة إلى مسافة بعيدة جدا. فإذا انتهى الجدار المستطيل الحافل بعدد لا حصر له من الشبابيك حودت معه فإذا بك أمام بوابة القصر الحديدية التى باتت غائرة فى الأرض وقد علاها الصدأ طبقات فوق طبقات. دعنا منها فلسنا نزمع دخولها ولا أحد يجرؤ على ذلك، رغم عدم وجود حراس عليها سوى أشباح الزمن والرطوبة والخراب.

إنما يكفى أن تعلم أن هذه هى بوابة قصر الخاصة ـ أى الخاصة الخديوية ـ الذى هو علم على بلدتنا حتى ليقولون عنا فى البلاد المجاورة أننا من القصر، ويقولون فى وصف بلادهم للأغراب عنهم أنهم من بلدة على يمين القصر أو على يساره أو فى جواره وهكذا.

أما الجدار فإنه هو الذى يعنينا، ليس فقط بالدرجة الأولى بل بكل الدرجات، فأى حديث فى البلدة إنما يدور حول هذا الجدار، وأى خلاف يحدث بين الناس فبسبب هذا الجدار، وكل رعب عشش فى قلوبنا فمن هذا الجدار، حتى الذين يهوون تأليف الأغانى والقصص يكون الجدار محور خيالهم ومصدر خصوبته.

خراب هو منذ تاريخ لايعلمه أحد، حتى الأجيال الكبيرَة من عجائز البلدة يطلعون عليه هكذا منذ مولدهم، وقصص الرعب والخوف والفزع هى العامود الفقرى لتراث أهل البلدة من الحكايات والنوادر السوداء والأغنيات والمواويل.

ومن عديد الأساطير التى توارثناها حول هذا القصر أن الخاصة الخديوية قد ابتنته ذات يوم موغل فى القدم ليكون بمثابة قصر لموظفى الدائرة المشرفة على ضيعة أفندينا، وكان ناظر الضيعة شابا عشق ابنة أفندينا فتزوجها فاختاره أفندينا وابتنى له هذا القصر، وكانت ليلة زفافه على العروس هى ليلة استلامه الضيعة هى ليلة افتتاح القصر، فامتلأ ليلتها بالسعادة وظل يسكر ويضحك ويرقص حتى انفجر بركان السعادة بداخله فوقع ميتا، ومن يومها أغلق القصر حدادا على صاحبه، ويبدو أن الزمن نفسه قد نساه إذ لم يعد أحد يسأل عنه أبدا. وثمة أسطورة أخرى تقول إنه قصر الفرعون إذ أن هذا البناء الضخم المتين لا يقوم به سوى الفراعنة وهذه الأحجار السميكة وهذه الأخشاب العظيمة وهذه النقوش الدقيقة لا تتوفر إلا لفراعنة. يؤكد ذلك مئات من حكايات

الثراء فى بلدنا عن ناس اقتحموه وخرجوا منه بتماثيل ذهبية وفضية وجعارين وحليات أخرى من الفيروز والماس ومن كافة التحف الثمينة.

وثمة أسطورة تقول إن بلدتنا هذه كانت عاصمة الحكم الرومانى القديم وأن هذا القصر كان قصر الحاكم، والدليل على ذلك بعض الرسوم المنقوشة على جدرانه الداخلية البارزة من خصاص البوابة الحديدية.

وأسطورة تقول إنه كان لأسرة إقطاعية من عهد نوح عليه السلام هربت من الطوفان فأدركها المصير بعيدا.. إلى آخر هذه الأساطير التى لا تنتهى. الطريف فى الأمر أن بلدتنا - بالطيبة أهلها وكرمهم الحضارى العريق - يتركون هذا القصر فى حاله كأن أصحابه سيحملونهم مسئوليته ذات يوم قريب.

وهكذا لم يفكر أحد من بلدتنا فى أن يتعرض للقصر بسوء، صحيح أن لصوصا من عشرات الأجيال اقتحمته وانتزعت منه خيرات كثيرة إلا أنه ظل قائما يلقى على الناحية كلها بظل كثيف من الغموض الكئيب والأرستقراطية الفاخرة..

جداره فى النهار نعيم وفى الليل جحيم لا يطاق، ولابد لكل شاب أو شيخ من بلدتنا يمر بجواره نهارا أن يشعر بشىء من السموق يداعب طموحاته ورغبته فى الارتفاع إلى الأعالى. وصوت المعارك وجعير الخناقات لا يكف عن بث الضجيج ووجع الدماغ طوال ساعات القيلولة لأن عشرات الفرق من الأنفار والفلاحين والأجراء

يسعون إلى نيل شرف التمدد فى ظله ساعة أو ساعتين، وثمة من يستخدم حديد شباكه فى فتل الحبال، وثمة أطفال لا يحلو لهم اللعب إلا تحت الجدار.

فالجدير بالذكر أن بلدتنا كلها تقع فى مواجهة هذا الجدار تماما وتبدو للرائى من بعيد كأنها مرض جلدى كأنها ورم فى أقدام القصر. هذا الجدار كان يقصر من عمر النهار فى بلدتنا ويطيل من عمر الليل إذ يحجب الشمس فى عز شبابها كأنها عورة لا يصح أن تراها صبية، فما أن يصفر لونها خلف الجدار حتى تكف الأرجل تماما عن السير تحت الجدار، ويقبع الجميع داخل الدور، ويجتهد الفلاحون فى العودة مبكرا من الحقول أو يبيتون هناك..

فلقد كانت الأساطير القديمة حول القصر تجعل من كل إشاعات الخوف حقائق، فكم خرجت النداهة من بين حديد الشبابيك واستدرجت الرجال والنساء والأطفال إلى داخل القصر لتخنقهم أو تورثهم الجنون، وكل فرد من أفراد البلدة كبيرا كان أو صغيرا له ذكرى بل ذكريات خاصة به نفسه ولابد أن يكون له حكاية حدثت ليحكيها. كان مارا من تحت الجدار يصلى الفجر فحدث له كيت وكيت. حتى الذى لم تحدث له حكاية بعد يقشعر بدنه ويرتعد إذا أدركه الظلام وهو ماض إلى البيت. ولم تكن ثمة طرق أخرى آمنة لأن كافة طرق البلدة كانت تبدأ وتنتهى عند الجدار المشئوم. البيوت نفسها لا تستطيع أن تحجب الخوف عن القلوب إذ ما يكاد المساء يهبط حتى ينتظم جو البلدة كلها صوت فحيح يشبه صوت

حيوان خرافى يشفط نفسا مكتوما. ذلك هو صوت طائر البوم ـ أم قويق ـ الذى تتخذ أسرابه من القصر مسكنا تأوى إليه عند المساء فهى كالخفافيش تحب أركان الظلام والأماكن المهجورة وكانت العواصف الصوتية ترج السماء صيفا وشتاء برعد لا ينتهى. فتيارات الهواء المنبعثة من الشبابيك المتقابلة تصفع الأبواب فيتهشم زجاج وتتكسر أشياء، وحين يشتد أوار العاصفة تعرف أن أسرابا من طيور مختلفة جديدة دفعها حسن النية وسوء البخت إلى محاولة احتلال القصر فيشب بينها وبين البوم والخفافيش ذلك الصراع المدمر، وتظل رفرفة الأجنحة تصك فراغ الحجرات المتعددة بكل طوابقها ويتضاعف صوتها فلا يرق إلا عند الشروق. ولما كنا قد توارثنا هذا الوضع أجيالا طويلة فإننا قد اكتسبنا قدرة على المقاومة والنوم مع ذلك ربما من شدة ما يصيبنا من تعب.

غير أن النوم قد استحال على جفوننا تماما منذ بضعة أشهر حينما لاحظ بعض المتأملين ممن ينامون تحت الجدار أن الجدار بدأ يسفسف التراب بل بدأ يميل قليلا منفصلا عن بقية القصر. وقد عارض الناس هذه الظاهرة فى البداية ولكنهم اضطروا لتصديقها حينما لمسوا بأنفسهم ازدياد المسافة الفاصلة بين الجدار وبقية القصر، فلما قدرت بثلاثة سنتميترات بدأ رجال البلد من ذوى الهيبة يمرون على البيوت ويطرحون على الناس اقتراحا بجمع تبرعات ينفقون فيها على اكتراء عمال تقوم بتنكيس الجدار وهدمه.

وقد أبدوا جميعا تحمسهم ولكن حصيلة الدفع لم تزد على قروش قليلة دفعها الفقراء الملاصقون للجدار مباشرة، أما غيرهم فكانوا يسلمون بضرورة الهدم على نفقتهم أى نعم ولكنهم يقولون: صبرك بالله شوية، وكأن ثمة اعتقاد راسخ فى أذهانهم بأن مثل هذا البناء الذى عاش فوق الأرض من قبل زمن الطوفان ربما يمكن أن ينهار هكذا من تلقاء نفسه..

إلى أن استيقظت البلدة كلها من عز النوم ذات صباح مر المذاق على صوات وصريخ ملتاع وصفير وهياج، وكل من يهب فزعا يجرى تلقائيا فى اتجاه الجدار، ليرى الناس تتجمع فى فريقين متزايدين أحدهما عند أول الجدار والآخر عند آخره. الفريقان يتبادلان الصراخ والصياح والصفير حتى لا يمر أحد من تحت الجدار، وفى دقائق معدودة كان نصف سكان البلدة المتاخمين للجدار قد جمعوا حاجياتهم وعزالهم وهاجروا إلى الخلاء.

ثم بدأ الجدار يميل شيئا فشيئا والناس تتباعد مهرولة فى رعب،ثم دوى فى الفضاء انفجار كونى اهتزت منه الأرض فقذفت بمن عليها إلى أماكن بعيدة أفقنا على ناس غيرنا فوق وجوهنا ناس كلها بوجه واحد مصبوغ بالتراب السميك لا تعرف منه الذكر من الأنثى وكنا قد أفقنا من ظلام دامس دام دهورا طويلة يغلف المنطقة برمتها، رحمة السماء وحدها هى التى أزالت الليل بزخات مطر متواصل كانت تتساقط مياهه بطبقات من الطين حتى اغتسل النهار ووضح، ورأينا كيف اكتسح الجدار بيوت البلدة بالدمار

الرهيب. وطال الوقت على المهاجرين خارج دورهم التى اختفت تحت الانقاض. ولم يتذمروا، خاصة بعد أن رأوا أن من نجت بيوتهم من الدمار يشرعون فى الرحيل إلى بعيد، ذلك أن المنظر قد بات مخيفا، فيكفى أن تتخيل جدارا بطول سبعة أفدنة وارتفاع سبعة طوابق وقد سقط، فإذا بنا نواجه أخطبوطا من الحجرات المفتوحة على بعضها فوق بعضها يفح منها الظلام والأشباح، فوهات مستطيلة كعيون مدينة خرافية.

وكنت وعشرات من زملائى الشبان قد أصبحنا نكابد البؤس فى كل شىء، طالت مدة الحياة المؤقتة التى نحياها كلاجئين إلى الفراغ من الفراغ. وكنا قد وجدنا لأنفسنا قضية نشغل بها أنفسنا نبذل فيها طاقاتنا المبدعة، حيث انطلقنا فى طول البلاد وعرضها نستميل قلوب الناس ونحثهم على التبرع لبناء مساكن تأوى أهلنا المشردين وتأوينا. وكانت حصيلة جهدنا طيبة، لم نعرف مقدارها ولكن انبسطت لها أسارير الكبار. ثم بتنا نشارك بأيدينا فى رفع الأتربة وجمع الأنقاض ويتحول التعب إلى عذوبة ساحرة.

غير أننا حين شرع العمال فى البناء فوجئنا بأن علينا ـ أولا وقبل كل شىء ـ إعادة بناء هذا الجدار نفسه، وأن علينا أن تكون هذه قضيتنا. وكنت أوقن من أن ذلك سيستغرق عمرا آخر طويلا، وأن ما جمعناه وما سوف نجمعه طوال الأعمار الباقية لن يكفى ـ بالكاد ـ لإقامة الجدار من جديد. وكنت موشكا على التفجر والتلاشى من الغضب، لكننى داويت القهر بالعصيان فعالجنى

العصيان بالعزلة فعدتنى العزلة بجبروت فردى يرفض الإذعان، إلا أنه كان بعصيانه وعزلته وجبروت فرديته كلما صافح الخلاء صار ظلا ممسوخا يتضاءل ويضمحل فى ظل ارتفاع الجدار.

فهرس

منافذ بيع مكتبة الأسرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

ت : ٢٥٧٧٥٠٠٠ ، ٢٥٧٧٥٢٢٨ داخلى ١٩٤ ، ٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى

بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقاً - المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى - توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير - الزقازيق

ت : ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠ - ٠١٠٦٥٢٣٧٣٣٢

مكتبات ووكلاء
البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة-
بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب : ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيروت - الفرع الجديد - شارع
الصيدانى - الحمراء - رأس بيروت -
بناية سنتر ماريا
ص. ب : ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع - سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد - المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦ - الجمهورية العربية السورية

تونس

المكتبة الحديثة - ٤ شارع الطاهر صفر - ٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية .

المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض (ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع طريق الملك فهد مع طريق العروبة - هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨ .

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية - شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة : ٢١٤٨٧ - ت : المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية - ص. ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت: ٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مؤسسة عبد الرحمن السديرى الخيرية - الجوف - المملكة العربية السعودية - دار الجوف للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. maktabetelosra. org.eg
E - mail : info@egyptianbook.org.eg

أدب

تعنى بنشر النصوص المتميزة فى الشعر والنثر والنقد الأدبى وتاريخ الآداب من أجل إثراء خبرة القارئ وتنمية وعيه الأدبى والسعى إلى نشر القيم الجمالية التى تحقق المتعة والفائدة فى آن.

أسباب للكى بالنار (قصص)

أسباب للكى بالنار، إحدى المجموعات القصصية للحكاء الكبير خيرى شلبى، يضم قرابة العشرين قصة تقترب فى أسلوبها الصياغى من اللغة الشفاهية التى تجعلها تدخل الوجدان كالحدوتة البسيطة، تقدم ما يشبه التشريح الجراحى للشخصية المصرية، فهى برغم ما يبدو على شكلها الخارجى من رقة حال وبساطة مظهر، حين توضع فى المحك السردى الذى أدخلها فيه الحكاء المتمرس، تبدو عالمة ببواطن الأمور وتستعيد خبرتها المتوارثة منذ آلاف السنين، فينجلى الموقف الدرامى لها شفافًا وتنطق بلسانها هى لا بلسان المؤلف.

خيرى شلبى

خيرى شلبى (٣١ يناير ١٩٣٨-٩ سبتمبر ٢٠١١م) روائى مصري و... عمير بمحافظة كفر الشيخ، ودرس فيها دراسته الأولية وانتقل ... بدمنهور، وامتهن عددًا كبيرًا من المهن البسيطة التى أكسبته هذ... بنماذج المجتمع المختلفة، وحين استقر فى القاهرة عمل صحفيًا ... إلى أن استقر فى مجلة الإذاعة والتليفزيون، ورأس تحرير مجلة ... القصة والرواية بالمجلس الأعلى للثقافة، أصدر أكثر من ستين ... والمسرح والقص من أبرزها: الوتد، ووكالة عطية، وصالح هيص... والنوم.. والدراسات الفكرية والأدبية، مما أهله لأن يحصد ... الكبرى التى كان آخرها جائزة الدولة التقديرية.





٢ جنيه

مكتبة الأسرة ٢٠١٢